

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب سورة مدنية، تتحدث عن بعض أمور الأسرة المسلمة، وعن المنافقين وأذاهم للنبي ﷺ، وعن غزوة الأحزاب، إلى غير ذلك، وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ نداء إلى الحبيب ﷺ، معناه: يا أيها المؤمن على أسرارنا، المبلغ عنا خطابنا إلى أحبائنا، إليك هذه التكاليفات:

أولاً: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: دم على تقوى الله، وازدد منه، والتقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من شرع الله، رجاء في ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من شرع الله، مخافة من عذاب الله.
ثانياً: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعة الله، فلا تسمع منهم، ولا تستشرهم.

حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بعواقب الأمور ﴿حَكِيمًا﴾ فيما أمرك به ونهاك عنه، لذلك هو أحق أن تتبع تعاليمه.

ثالثاً: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من قرآن وسنة، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لا تخفى عليه خافية.

رابعًا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في جميع أمورك وأحوالك، وهو كافيك في كل ذلك
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ويلاحظ جيدًا: أن الخطاب في هذه التكليفات للنبي ﷺ، ولكن تدخل أمته معه فيها،
فهي مطالبة أيضًا بهذه الأمور:

تقوى الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع الوحي، والتوكل على الله.

وبعد هذه المقدمة التشريعية للنبي ﷺ التعليمية له ولأمته، تدخل الآيات في إبطال
عادة جاهلية، وهي عادة التبني، فتقول تميهدًا لذلك:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ
مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ
الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

يعني ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ يعي بهما، كما كان يدعي
بعض الكفار، عنادًا للنبي ﷺ، ولذلك هو قلب للإنسان واحد، ومنهج يسير عليه الإنسان
واحد، وهو منهج الله تعالى.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ حينما يقول المرء
لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أي: لا تصير الزوجة أمًا بذلك.

﴿و﴾ ثالثًا ﴿مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ الذين تدعون بنوتهم، وتتببنوهم: ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾.
﴿ذَلِكَ﴾ الذي تدعونه في حق هؤلاء الثلاثة: هو ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فقط،
وليس له علاقة بالحقيقة.

﴿وَاللَّهُ﴾ وحده هو الذي ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ في ذلك.

﴿وَهُوَ﴾ أيضًا الذي ﴿يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ الحق، والطريق الحق، والقول الحق.
لذلك وبخصوص أولاد التبني:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾﴾

وهنا: إبطال مباشر لعادة التبني وتشريع واضح للبدل.. ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ إن كان أبائهم معروفين، ذلك ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل وأفضل ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي شرعه ودينه. ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ لتنبؤهم إليهم: ﴿ف﴾ هم ﴿إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وهذه أخوة جديدة بدأ الإسلام يرسخها في النفوس، ويعلي من شأنها بين المسلمين. ﴿و﴾ كذلك هم ﴿مَوَالِيكُمْ﴾ بينكم وبينهم ولاية في الدين، وتربط وتناصر وذلك: عوضاً لهم عما فاتهم من النسب الحقيقي.

هذا، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: ذنب وإثم ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ في هذا الموضوع، وهو موضوع (التبني)، قبل هذا التشريع، ولكن الإثم والذنب في ﴿مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فعله، وفعلتموه بعد هذا النهي عنه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سبق منكم في هذا الموضوع ﴿رَحِيمًا﴾ حيث يقبل التوبة، حتى ممن كان متعمداً.

وبعد ترسيخ هذا الحكم الجديد في هذا المجتمع الوليد، يشرع ربنا أحكاماً أخرى فيقول سبحانه وتعالى:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

﴿النَّبِيُّ﴾ ﷺ ﴿أَوْلَىٰ﴾ طاعة ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ﴾ طاعتهم لـ ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ حيث إن نفوسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة، وهذا هو الحكم الأول.

والحكم الثاني: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَمْهَنَهُمْ﴾ أي: كأمهاتهم، في وجوب احترامهم

وتعظيمهم، وحرمة نكاحهم.

الحكم الثالث: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في قضية الميراث، فيكون

الميراث بينهم بالقربات، وذلك ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في

حكمه وقضائه، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ حيث كان التوارث

بالولاية في الدين والهجرة، لا بالنسب والقرابة.

ويستثنى من هذا الحكم: التواصل، والإحسان، والبر، والمعروف بين هؤلاء الأولياء

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ فهذا باق إلى يوم القيامة.

﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ أي: التوارث بالأرحام والقربات، والإحسان والتواصل، مع أولو

الأرحام ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا.

بعد هذه التكليفات للنبي ﷺ، وأمته، وبعد تصحيح هذه المفاهيم والعادات

المغلوطه، التي كانت، نعم بعد التأكيد على القيام وتبليغ هذا وذاك.

يقوي ربنا عزيمة حبيبه ﷺ، بتذكيره بإخوانه المرسلين من أولي العزم، فيقول الله عز

وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ

مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ

لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ جميعًا ﴿مِيثَقَهُمْ﴾ في

إقامة دين الله، واتباع شرعه، وتبليغ أحكامه وهديه.

﴿و﴾ اذكر أيضًا وقت أن أخذنا ﴿مِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ

مَرْيَمَ﴾ على وجه الخصوص؛ لأنكم من أولي العزم، وجميل الصبر على تحمل إيذاء

الدعوة.

﴿و﴾ قد ﴿أَخَذْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الجميع ﴿مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهدًا شديدًا

مؤكدًا، وكان ذلك ﴿لَسْتَكَ﴾ الله ﴿الصَّٰدِقِينَ﴾ المؤمنين ﴿عَنْ صِدْقِهِمْ﴾، وهم الأنبياء، في تبليغ رسالتهم؛ تبيكتًا للكافرين، وخزيًا لهم ﴿و﴾ قد ﴿أَعَدَّ﴾ الله ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هؤلاء ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ جزاء تكذيبهم وعنادهم.

عندما أمر الله رسوله والمؤمنين معه في أول السورة بتقوى الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين خوفًا منهم، واتباع شرع الله، والتوكل عليه، وذلك من باب التربية على الخوف من الله وحده، وعدم الخوف من غيره سبحانه أيًا مَن كان هذا الغير..!!

يَبَيِّنُ ذلك عمليًا بما حدث في غزوة الأحزاب، حيث يقول تبارك وتعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾

هذه هي قصة غزوة الأحزاب في كلمات معدودات، يبين فيها رب العزة أنه هو الذي صرف الأذى، وأبعد الخوف عن عباده المؤمنين ونصرهم؛ لَمَّا حققوا تقواهم لله، واتباعهم لشرعه، وتوكلهم عليه، وعدم طاعتهم للكافرين والمنافقين.

وتفصيلات هذه الغزوة: من باب الدراسة لأخذ العبرة، والتربية الجهادية، في الآيات التالية: يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هَٰلِكَ أَتَىٰ الْمُؤْمِنُونَ زُلْزَلًا وَزُلْزَلًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾

هذا تصوير خارجي وداخلي للموقف في هذه الغزوة.

الخارجي: ﴿إِذْ جَاءُوكُم﴾ أي: الأعداء ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من شمال المدينة المنورة، وهم قريش وغطفان.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من جنوب المدينة، وهم يهود بنو قريظة، الذين نقضوا العهد معكم في هذه اللحظات، فأصبحتم بذلك محاطين بالأعداء من كل جانب.

والداخلي: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ منكم ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ﴾ كذلك ﴿الْحَنَاجِرَ﴾ من شدة الخوف والفرع.

﴿و﴾ أصبحت في هذا الموقف: ﴿تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ حيث فهم المسلمون أن هذا هو الابتلاء، فخاف بعضهم الزلل، وضعف الاحتمال في مواجهة هذا العدوان، وعدم القدرة على نصره الدين.

﴿هَنَالِكَ﴾ حقيقة ﴿أَبْتَلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وامتحنوا؛ ليظهر صبرهم ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ليظهر ثباتهم على عقيدتهم.

والأدهى من ذلك موقف المنافقين الذين كانوا في الجبهة الداخلية، يقول عنهم العزيز الحكيم:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿١٢﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ﴾ نفاقًا كاملاً ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: بعض نفاق، يقولون لبعضهم البعض: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من النصر والفوز على الأعداء، والنعيم المقيم إن صرنا شهداء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: تغريراً بنا، وتزييفاً علينا.

بل أكثر من هذا الكلام: في التشيط عن الجهاد..

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَآهَلُ يَثْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿١٣﴾

يعني حول المنافقون أحاديثهم إلى عمل ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ لكل الجيش ﴿يَتَآهَلُ يَثْرَبَ﴾ وهي المدينة؛ تخويفاً، وتشكيكاً في النصر ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أمام هذا الجيش الجرار من المشركين، الذين أتوكم ليفنوكم ويستأصلوا وجودكم، ونحن ناصحون لكم ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة، ولا تحاربوا.

إنها: دعوة خطيرة، وفتنة منكرة!! يَثْبُت فيها المؤمنون، ولا يتشككون، ولا يتراجعون وينخذل فيها المنافقون، فيتسرب بعضهم خفية إلى المدينة، منسحباً من ساحة الشرف والجهاد.

﴿وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿النَّبِيَّ﴾ في الانصراف ﴿وَيَقُولُونَ﴾ معللين انصرافهم ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: مكشوفة للأعداء.

﴿وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ كَذَبُوا؛ إِذْ ﴿مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ كَمَا يَزْعُمُونَ ﴿إِنْ﴾ أَيُّ: مَا يُرِيدُونَ﴾ بهذا التعلل ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال، وما دفعهم إلى ذلك إلا عدم الإيمان بالله ورسوله. لذلك يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ ﴿١٤﴾

أي: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ المدينة بالأعداء ﴿عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها فقط، وليس من قلبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ وهي الكفر، أي: طلب منهم الردة عن الإيمان الظاهري الذي هم عليه، والعودة إلى الكفر ﴿لَآتَوْنَهَا﴾ وكفروا ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا﴾ وما تأخروا عن إجابتهم لهذه الفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾. والغريب أن هؤلاء كان منهم عهد قبل ذلك، نعم..

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْآذِنَةَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ ﴿١٥﴾ يعني ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ ورسوله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذه الغزوة.. أنهم ﴿لَا يُؤْلَوْنَ الْآذِنَةَ﴾ أي: لا يفرون من المعركة وملاقاة الأعداء؛ دفاعاً عن المدينة، بل يثبتون على القتال، ويموتون شهداء، ولكنهم الآن فروا، ونقضوا عهدهم.

﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ مطلوباً للوفاء به، ومحاسباً عليه يوم القيامة.

ولمّا كان فرارهم من ساحة القتال حرصاً منهم على حياتهم، فقد قال ربنا لحبيبه:

﴿قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنِ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُونَهُمْ مِّنْ ذُنُوبِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٧﴾

يعني ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنِ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ حيث إنه لا يؤخر آجالكم، ولا يطوّل أعماركم، وحتى لو فررتم منه في ساحة الجهاد،

كما تظنون وتحبون ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ﴾ بعد هذا الفرار في لذات الدنيا الفانية ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم تموتون بعدها.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا: إن فررتم من الموت أو القتل ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ ويمنعكم ﴿مَنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ في أنفسكم بالقتل، أو بالمصائب، وغيرها ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ منه، كعافية وسلامة في بقية عمركم بعد الفرار.

على كل حال هؤلاء الذين يفرون سيعذبون ﴿وَلَا يَحْدُونُ لَهُمْ﴾ ساعتها ﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يغنيهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يمنع عنهم هذا العذاب.

ثم بين الله ملامح وعلامات هؤلاء المنافقين، وذلك في قوله سبحانه:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٨﴾

المعنى: الله عز وجل يعلم المعوقين عن الجهاد منكم، أي: من بين صفوفكم سواء أكان هذا التعويق تشييط بالقول أم بالفعل.

فهم يشبطون عن الجهاد بالقول؛ حيث يقولون ﴿لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ تعالوا معنا، واتركوا الساحة، ولا تقاتلوا مع محمد، وهم يشبطون عن الجهاد بالفعل كذلك، حيث إنهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾ أي: ساحة الجهاد، وأرض المعركة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من باب الرياء، ويتعللون لغيابهم بانشغالهم بمصالحهم الخاصة. إنهم بخلاء..

﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْطَبَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

نعم ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ بالمال، فلا ينفقون في سبيل الله، وبالبدن، فلا يقاتلون معكم، وبالعواطف، فلا يشفقون عليكم ولا يتوددون إليكم، وسبب ذلك أنهم جبنا.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ من العدو: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في هذه الحالة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يمينًا وشمالًا، وهم في منتهى الهلع ﴿كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْفَرْعِ﴾ عند

حلول ﴿الْمَوْتُ﴾ به. وهكذا خوف الجبان البخيل من القتال.

﴿فَإِذَا﴾ ابتعد العدو، أو انهزم و ﴿ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ عنهم: ﴿سَلَفُوكُمْ﴾ طالت ألسنتهم، وعلت أصواتهم، وأذوكم بالكلام الشديد المؤلم كالحديد، وهم يبحثون عن الغنائم والمكاسب، وهم بكلامهم هذا، وحرصهم هذا، تروّضهم ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ يطالبون بلا خجل، ويزاحمون بلا مروءة، يقولون أين نصيبنا، لقد قاتلنا معكم؟

فهم في الحرب: أجبن شيء!! وهم في السلم: أطمع شيء!!

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك: ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ في الحقيقة، إلا باللسان فقط.

ولهذا، أَحْبَطَ ﴿اللَّهُ﴾ وأبطل ثواب أعمالهم.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط لأعمالهم: عدلاً من الله تعالى، كما أنه كان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ يسيراً ﴿هَيَّأاً﴾.

هؤلاء من شدة جبنهم أنهم كانوا..

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا﴾ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

يعني أن هؤلاء المنافقين ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ﴾ التي جاءت لحرب المسلمين ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ حتى بعد انصرافهم.

﴿و﴾ كانوا ﴿إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ مرة ثانية ﴿يَوْدُوا﴾ أي: المنافقون ﴿لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا﴾ أي: مقيمون بالبادية ﴿فِي﴾ وسط ﴿الْأَعْرَابِ﴾ تجنباً للقتال، و﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم من المدينة ﴿عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ كانوا ﴿فِيكُمْ﴾ ساعة القتال والحرب: ﴿مَا قَتَلُوا إِلَّا﴾ قتلاً ﴿قَلِيلًا﴾ لجبنهم، وضعف إيمانهم.

هؤلاء هم المنافقون، فاعرفوهم واحذروهم واتبعوا رسول الله، ولا تتخلوا عنه أبداً.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿٢١﴾

أي: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي﴾ أقوال وأفعال وأحوال ﴿رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة طيبة تحتذونها، وتسировون عليها يا أيها المتخلفون عن الجهاد، والقتال معه في سبيل الله...!! أليس هو الذي بذل نفسه، لنصرة دين الله؛ حينما خرج إلى الخندق، وجاع بطنه، وصبر وصابر في سبيل الله؟

أليس هو الذي بذل نفسه لنصرة دين الله؛ حينما خرج إلى أحد، وشج وجهه، وكسرت رباعيته، وقُتل عمه، وصبر وصابر في سبيل الله..؟

نعم إنه ﷺ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ومثل أعلى لكل الباحثين عن الشرف والمجد، وهو ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يقتدي به، كلٌ موصوف بهذه الصفات:

أولاً: الذي ﴿يَرْجُوا اللَّهَ﴾ أي: يطلب مرضاة خالقه سبحانه، ويتبع شرعه.

ثانياً: الذي يخاف ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ويستعدُّ له بالعمل الصالح.

ثالثاً: الذي ﴿ذَكَرَ اللَّهَ﴾ في حال الرجاء والخوف، بل في كل أحواله ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾.

وبعد أن بين الله أحوال المنافقين، وعاتب المتخلفين، وقدم الأسوة الحسنة للراغبين في مرضاة الله.. بين حال المؤمنين الصادقين في هذه الغزوة، فقال تعالى:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿٢٢﴾

أي: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ وهم مصطفون للقتال ﴿الْأَحْزَابَ﴾ قدموا لقتالهم لم يخافوا، ولم يتخاذلوا، بل ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الابتلاء والاختبار، ثم النصر على الأعداء بإذن الله ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في هذا الوعد.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ تجمع الأحزاب وكثرتهم، وإحاطتهم بالمسلمين من كل جانب ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله ورسوله، وبوعد الله ورسوله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاء الله وقدره.

ولمّا كان الله عز وجل قد أخبر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد، وولوا الأدبار، وفروا من

ساحة القتال.. فقد ذكر ثبات المؤمنين، ووفاءهم بما عاهدوا الله عليه، فقال:

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣)

يعني ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات في القتال، والبقاء بجانب رسول الله حتى ينصره الله، ويعز دينه، ويهزم أعداءه، وهؤلاء هم الصحابة رضوان الله عليهم، وهم قسمان:

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ ووفى بعهده، وأدى ما عليه، واستشهد في سبيل الله، وهم كثير

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ﴾ هو ثابت مع النبي ﷺ، ويقاتل معه، و ﴿يَنْتَظِرُ﴾ إحدى الحسين: النصر، أو الشهادة.

﴿و﴾ هؤلاء ﴿مَا بَدَّلُوا﴾ العهد ﴿تَبْدِيلًا﴾ لا الذي قضى منهم نجه، ولا من ينتظر.

ومن نعم الله على هؤلاء المؤمنين: أن الله شرفهم بالصدق فيما عاهدوا الله عليه وذلك:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٢٤)

أي: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ هؤلاء ﴿الصَّادِقِينَ﴾ خيرًا ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ في وفائهم بما عاهدوا الله عليه.

﴿و﴾ كذلك لـ ﴿يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ على عدم وفائهم بما عاهدوا الله عليه، وانسحابهم من ساحة القتال ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إذا لم يتوبوا لربهم.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويغفر لهم إن تابوا إلى الله وأنابوا مرة أخرى، وصدقوا في إيمانهم وتوبتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لمن تاب وآمن ﴿رَحِيمًا﴾ بالمؤمنين جميعًا. وانتهت غزوة الأحزاب.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ﴿٢٥﴾

يعني ﴿وَرَدَّ اللَّهُ﴾ بقدرته ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى ديارهم، محملين ﴿بِغِظِهِمْ﴾ منكم، ومن هزيمتهم أمامكم، خاصة وأنهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ أي: نصرًا، كانوا يرغبون فيه عليكم.

﴿و﴾ بِذَلِكَ ﴿كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ حيث سلط عليهم ﴿رِيحًا وَجُودًا﴾ لَمْ تَرْوَهَا ﴿[الأحزاب: ٩].﴾

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ عز وجل ﴿قَوِيًّا﴾ قَادِرًا عَلَيْهِمْ ﴿عَزِيزًا﴾ لا يغلب إرادته أحد.

وقال النبي ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» وقد كان، إذ لم يأتوا للحرب في المدينة بعدها، بل انتقلت ساحة الحرب إلى حيث ديار الأعداء في الحديبية، ومكة، وحنين، وغير ذلك.

وكان من نتائج هذه الغزوة أيضًا ما يقوله الله تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ﴿٢٦﴾ وَأَوْفَرْتُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيرَهُمْ وَأَمْلَأْتُمْ وَارِضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾

﴿و﴾ بعد أن رد الله الذين كفروا إلى ديارهم خائين ﴿أَنْزَلَ﴾ بقدرته ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ عاونوهم على قتال المسلمين، وغدروا بعهدهم مع النبي ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم يهود بني قريظة، الذين كانوا يسكنون أسفل المدينة من جهة الجنوب، في منطقة قباء، أنزلهم ﴿مِنْ صَاحِبِهِمْ﴾ من حصونهم.

﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ﴾ من المؤمنين؛ بسبب ضعفهم، ونقضهم العهد وغدرهم، وانصراف المشركين عنهم وانتصرت عليهم؛ حيث صرتم ﴿فَرِيقًا﴾ منهم ﴿نَقْلُوكَ﴾ و ﴿تَأْسِرُونَ﴾ منهم ﴿فَرِيقًا﴾ آخر.

وبذلك: انتهى الوجود اليهودي تمامًا ونهايًا بالمدينة المنورة.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ من بعدهم؛ حيث صارت ملكًا لكم. ﴿و﴾ كذلك أورثكم ﴿أَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا﴾ وتدخلوها بعد، يدخل في ذلك خير، التي فتحت بعد ذلك، كما يدخل فيها كل أرض تفتح للمسلمين، ويتم جلاء اليهود عنها إلى يوم القيامة، ولعل هذه بشرى بالنصر للمسلمين في أرض فلسطين، إذا وجد من المسلمين من يتصف بصفات صحابة رسول الله ﷺ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: قادرًا على كل ما أراد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

يقول العلماء: إن مكارم الأخلاق في أمرين:

التعظيم لله، والشفقة على خلق الله.

ولما كان أفضل الناس في مكارم الأخلاق هو محمد ﷺ، فقد أرشده ربه إلى الأمر الأول، وهو (التعظيم لله) في أول السورة، حينما قال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

وهنا يرشده ربه إلى الأمر الثاني: وهو الشفقة على خلق الله، ويبدأ معه بأولى الخلق بهذه الشفقة: وهن الزوجات، حيث يقول له:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَامًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

رُوي أن نساء النبي ﷺ قد سأله ثياب الزينة، وزيادة النفقة، فنزلت هاتين الآيتين.

وهنا خير النبي ﷺ زوجاته، كما توضح الآيات، والمعنى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ وَخَيْرُهُنَّ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا﴾ وكثرة أموالها: ﴿فَنَعَالَيْكُمُ﴾
واخترن برغبتكن ذلك ؛ وأنا أطلقكن، أي: مَنْ تختار الحياة الدنيا وزينتها.

و ﴿أُمَتِّعُكُمْ﴾ متعة الطلاق، أي: أعطيك نفقة المطلقة، ومنعتها.

﴿وَأَسْرِحُكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرر فيه لمن تختار ذلك.

﴿وَلِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: مرضاتهما، ونعيم ﴿وَالْآثَارِ﴾
الْآخِرَةِ: فجزاؤكن عند الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقد اخترن جميعاً رضوان الله عليهن، الله ورسوله والدار الآخرة.

ولمّا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أدبهن الله تعالى بجملة من الآداب الرفيعة،
والأخلاق الكريمة، وهددهن على ضدها، فقال مخاطباً لهن:

﴿يٰۤأَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمُ الْفَاحِشَةُ مُبَيَّنَّةٌ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ﴾
ضَعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

يعني ﴿يٰۤأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ اتقين الله، وابتعدن عن ساحة الفاحشة؛ صيانة لمقام النبوة،
وحفاظاً على مكانتكن في بيت الوحي، حيث إنه ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمُ الْفَاحِشَةُ﴾
مُبَيَّنَّةٌ ﴿أَي:﴾ بسئة بليغة القبح: ﴿يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضَعْفَيْنِ﴾؛ لأنها ليست
كسائر النساء، وزوجها ليس كسائر الرجال، حيث أُنْتُنَّ وهو ﷺ.. محل القدوة.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ التضعيف والزيادة في العذاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وفي هذا غاية البيان لشرف بيت النبوة، وغاية التأكيد على جعلهن محل القدوة.

صَلَّى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، ورضي الله عن أمهات المؤمنين أجمعين.

نحن الآن مع الآداب الرفيعة، والأخلاق العالية، والقدوة الحسنة، في بيت النبوة وهذا
هو الأدب الثاني لنساء النبي ﷺ:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لِحَاقَةً وَرَسُولُهُ وَقَعَلَ صَاحِبًا تَوَّعَّاهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعَدَّ لَهَا﴾
رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

المعنى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ﴾ أي: ومن يطع ﴿مِنْكُمْ لِحَاقَةً﴾ لِحَاقَةً وَرَسُولُهُ وَقَعَلَ صَاحِبًا

تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴿٣٢﴾ كما كان لها في العذاب على الفاحشة ضعفين ﴿٣١﴾ زيادة على هذا الأجر المضاعف: ﴿أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ عظيم القدر، وهو الجنة.

ثم يخاطبهن رب العزة زيادة في التشريف بهذه الآداب، فيقول جل وعلا:

﴿يٰۤاَيُّهَا النِّسَاءُ الَّتِي لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (٣٢)

﴿يٰۤاَيُّهَا النِّسَاءُ الَّتِي لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أي: ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، بل أنتن أكرم علي، وثوابكن أعظم لدي، لذلك ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الله حق التقوى، فهذا هو الأدب الثالث، وهو:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ إذا كان حديث منكن مع الرجال، من وراء حجاب، فلا يكن حديثكن ليناً ﴿فَيَطْمَعَ﴾ في حديثكن ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: نفاق وريبة. الأدب الرابع: ﴿وَقُلْنَ﴾ لجميع من يتحدث معكن ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: قولاً حسناً، معروفاً بالأدب، بعيداً عن الخضوع واللين.

وإذا كانت الآداب الإلهية لبيت النبوة السابقة تتعلق بالأقوال، فهناك - كذلك - آداب تتعلق بالأفعال، ومنها ما يلي:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣٣) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴿٣٤﴾

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمّن بيوتكن، فلا تخرجن منها لغير حاجة شرعية، وهذا

هو الأدب الخامس.

وأما الأدب السادس، فهو ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾.

والجاهلية الأولى: هي الكفر قبل الإسلام.

والجاهلية الأخرى: هي الفسوق والفجور بعد الإسلام.

وتبرج الجاهلية الأولى: ما كانت تفعله المرأة من المشي بين يدي الرجال، أو المشي

الخليع بين يدي الرجال، أو التكشف أو التعرية للعنق وبعض الشعر، وغير ذلك أمام الرجال.

والمعنى: ولا تكن متبرجات إذا خرجتن، كما كان نساء الجاهلية الأولى يتبرجن.

والأدب السابع: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾ وحافظن عليها بصفة خاصة.

والأدب الثامن: ﴿وَعَايَنَ الزَّكَاةَ﴾ وهي الإحسان إلى المخلوقين.

والأدب التاسع: ﴿وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما يرضي الله ورسوله.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ ويشعر هذه الآداب لأمرين:

﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: الذنوب وآثامها، يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

﴿و﴾ كذلك ﴿يُطَهِّرُكُمْ﴾ من نجاسة الآثام، والتحلي بهذه الأخلاق ﴿تَطْهِيراً﴾ بليغاً زائداً عن تطهير أهل التقوى من سائر النساء.

ويلاحظ جيداً أنه في ذكر هذه الآداب دعوة للاقتداء والتحلي بمكارمها من النساء المسلمات وتنفير لهن - أيضاً - على نواهيها.

وأما الأدب العاشر فهو: ﴿وَأَذْكُرْنَ﴾ في أنفسكن دائماً، ولغيركن تعليماً ووعظاً ﴿مَا يَتْلَى﴾ على النبي ﷺ، ويوحى إليه ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة النبوية المطهرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالماً بغوامض الأشياء وخوافيها ﴿خَيْرًا﴾ بأفعالكن وأقوالكن، فاحذرن مخالفة أمره تعالى ونهيه، وكذلك معصية رسوله.

هذا، ويذكر المولى سبحانه وتعالى الصفات العليا للرجل والمرأة، والتي يستحق بها أهلها مغفرة الله تعالى، ورضوانه، ويرفع بها قدرهما، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّكِرِينَ وَالذَّكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

عَظِيمًا ﴿٢٥﴾

يُروى أن بعض أزواج النبي ﷺ سأله قائلين له: إن الله ذكر الرجال في القرآن، ولم يذكر النساء بخير، أليس فينا خير نذكر به؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة!! فنزلت هذه الآية، وفيها مساواة النساء بالرجال: في العمل والأجر، إذ تذكر عشر صفات ينبغي أن تكون في الرجال والنساء على السواء:

الأولى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾.

والمسلم: من أسلم أمره لله، ورضي شرعه، وانقاد له، وعمل به، وفوض أمره لله، وتوكل عليه.

الثانية: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

والمؤمن: هو المصدق بالله ورسوله، والله ورسوله في كل شيء.

الثالثة: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾.

والقانت: هو المواظب على طاعة الله ورسوله.

الرابعة: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾.

والصادق: هو من صدق في نيته، وقوله، وفعله، ولا يعرف الكذب إليه طريقاً.

الخامسة: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾.

والصابر: هو المحافظ على الطاعة، البعيد عن المعصية، الراضي في البلاء، الثابت في ميدان الجهاد.

السادسة: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾.

والخاشع: هو المتواضع لله، بقلبه وجوارحه، والخائف من غضبه وعذابه، المراقب لله في كل أحواله.

السابعة: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾.

والمصدق: هو الباذل لماله، دون بخل به، في الفرض، والنفل، والصَّلات.

الثامنة: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾.

والصائم: هو الممتنع عن شهوة الكلام فيما لا يفيد، وشهوة البطن الحرام، أو التي تشغل عن العبادة.

التاسعة: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾.

والحافظ لفرجه: هو من لا يتعرى أمام الغير، ولا يطلع على عورة الغير، والذي يمتنع عن شهوة الفرج الحرام، أو التي تشغل عن الطاعة.

العاشرة: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

والذاكر لله: هو من يسبح بحمد الله، ويقرأ القرآن، ويشغل بالعلم النافع.
هؤلاء ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ منه لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا﴾ عنده ﴿عَظِيمًا﴾ لهم،
وهو الجنة.

لَمَّا كانت أول هذه الصفات المذكورة هي الإسلام، كان من الضروري بيان أهم
مظاهر هذا الإسلام، وهو التسليم الكامل لله ولرسوله، يقول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ
أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٦)

يعني إذا حكم الله ورسوله بشيء في أي أمر، فليس لأحد مخالفته، بل لا اختيار لأحد في
هذه الحالة.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بعد معرفة هذا الحكم، في أي أمر أو نهى: ﴿فَقَدْ
ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ وهذا الضلال المبين يكون كفرًا إذا عاند حكم الله، وأنكره، ويكون
فسوقًا إذا قبل الأمر، وآمن به، ولكنه لم يفعله.

وإذا كان من أهم مظاهر الإسلام التسليم الكامل لله ولرسوله، فإن السورة تذكر واقعة
عملية في الحياة النبوية، تعطينا لونا من هذا التسليم؛ تعليمًا لنا، وتدريبًا على حسن الاقتداء،
يقول تعالى للنبي ﷺ:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ
وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى
زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ
إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٧)

هذه الآية الكريمة لها قصة: يحرفها أعداء الإسلام، ويطعنون بها على دين الله، ويتغامزون
بها على رسول الله ﷺ، وهذه القصة باختصار شديد في أصح رواياتها: أن النبي ﷺ خطب
زينب بنت جحش ابنة عمته لزيد بن حارثة الذي كان عبده، ثم أعتقه وتبناه، ثم أبطل الإسلام
التبني، فأصبح مولاه وفاته، لذلك: لم ترض زينب النسبة الشريفة بهذا الزواج..!!

فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]: قبلت. وتزوجت زينب زيدا.

ثم حدث بينهما خلافات: وصلت إلى حافة الطلاق.

وأراد الله عز وجل أن يلغي عادة جاهلية.. وهي: عدم الزواج من زوجة الابن المُتَبَنَّى.. فأعلم محمداً - ﷺ - بأنه: سيكون لها زوجاً.

وجاء زيد يشتكي لرسول الله - ﷺ - حياته مع زينب، ويريد طلاقها.

ماذا يفعل رسول الله ﷺ .. ؟

أيقول له طلقها، وأتزوجها أنا، ويظهر ما بنفسه من أمر زواجه منها، كما علم بالوحي: فيتحدث الناس..!!

أو ينصحه بالصبر وحسن العشرة، ويقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ حتى يأذن الله بأمر آخر، يكون فيه المخرج من هذا المأزق.

واختار الثانية..!!

وقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.

ونزل القرآن يشرع ويعاتب ويقول: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالحرية: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: زينب ﴿وَأَتَّقِ اللَّهَ﴾ ولا تطلقها؛ فإن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

تقول له ذلك، ﴿و﴾ أنت ﴿تُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ ما أوحى إليك من زواجها، و ﴿مَا﴾ هو ﴿اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ومظهره للناس؛ لأنه تشريع..!!

﴿وَتَخَشَّى النَّاسَ﴾ وكلامهم، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ في طاعته..!!

وبالفعل.. لم يعلم زيد ولا الناس، ما في نفس الرسول ﷺ، مما أوحى إليه في هذا الموضوع. واستمرت الحياة الزوجية فترة بين زيد وزينب.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أي: حاجته في عيشته منها، واستحالت المعيشة بينهما: طلقها، وانقضت عدتها؛ تزوجها النبي ﷺ تنفيذاً لأمر الله تعالى، حيث يقول سبحانه: ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾ بوحينا، وأمرنا.

وكان ذلك الحادث!! ومعك أنت يا محمد...!!

﴿لَكَى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوَاجِهِمْ مِنْ أَزْوَاجٍ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن.
﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ نافذاً وكان شرعه مطبقاً ﴿مَفْعُولًا﴾ كائنًا لا محالة.

ثم يرد الله عز وجل على مَنْ تغامزوا أو يتغامزون على النبي ﷺ في هذا الموضوع بقوله عز وجل:

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨)

يعني ليس على النبي ﷺ حرج في تنفيذ شرع الله، المخالف لعاداتكم، فهذه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي﴾ الأنبياء ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ وسبقوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثة محمد ﷺ.
حيث لم يكن رب العزة يأمرهم بشيء، ويكون عليهم فيه حرج، أو لديهم خشية من أحد.
﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الذي قضاه وقدره ﴿قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ حكمًا نافذًا لا محالة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.
هؤلاء الأنبياء هم:

﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩)

نعم، هم ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ إلى الناس بأمانته، ويطبقونها كاملة، وبقدة ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ وحده، مرضاة لله ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا أَبَدًا﴾ ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾.
وبذلك فلا يمنعهم بطش، ولا خوف، ولا أذى، من تبليغ رسالات الله إلى البشر.
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ لهم ﴿حَسِيبًا﴾ معينا وناصرًا ومؤيدًا. ثم إنه..

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤١﴾

يعني: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ﴾ حقيقي من صلبه ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ وتزوج مطلقة؛ حتى تهيجوا هذا الهياج، وتحاملوا عليه هذا التحامل ﴿وَلَكِنْ﴾ هو رَسُولُ اللَّهِ ﴿فَأَقْوَالَهُ، وَأَفْعَالَهُ، وَإِقْرَارَاتِهِ: تَشْرِيعٌ، ﴿و﴾ هو ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ فلا نبي بعده، ولا تشريع بعده، لذلك لا بد من كمال البيان وتمام التشريع، في حياته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما تقولون ﴿عَلِيمًا﴾ وسيجازيكم عليه.

ثم يأمر الله عباده المؤمنين بذكره وتسيحه؛ وصولاً لهداية الله، ونوالاً لمرضاته، وفوزاً بجنته، إذ يقول الله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

ذكر الله تعالى فريضة أمر بها، لا حد لها، ولا وقتاً مخصوصاً بها، ولا عذر في تركها.

بل هي في كل وقت وحال من ليل أو نهار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ونعمه ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ بالليل والنهار.

﴿و﴾ كذلك ﴿سَبِّحُوهُ﴾ ونزهوا ذاته عما لا يليق ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره، حيث إنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ يرحمكم ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ يستغفرون لكم: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ بفضلته ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى.

﴿و﴾ هكذا ﴿كَانَ﴾ الله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وهذا في الدنيا.

وفي الآخرة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي هؤلاء المؤمنين ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ ويرونه ﴿سَلَامٌ﴾ من الله لهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ كذلك ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾ وهو الجنة وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أرشد الله النبي ﷺ فيما سبق - إلى آداب التعامل مع ربه في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣].

وأرشد - كذلك - إلى آداب التعامل مع أهله خاصة، في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٤].

وهنا يرشده إلى آداب التعامل مع الخلق عامة، فيقول جل وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ
الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

في هذه الآيات الكريمات: يصف ربنا نبيه ﷺ، بخمس صفات، ويطلبه بخمسة أشياء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ برسالتنا إلى العالمين وجعلناك موصوفًا بهذه

الصفات الخمسة:

الأولى: ﴿شَهِيدًا﴾ لله بالوحدانية، وعلى الناس يوم القيامة.

الثانية: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بفضل الله ورضوانه.

الثالثة: ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين والعصاة، بالعذاب.

الرابعة: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ دين ﴿اللَّهِ﴾ وشرعه ﴿بِإِذْنِهِ﴾ هو سبحانه، وليس من عندك أنت.

الخامسة: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ هاديًا واضحًا، يستفيد من هديك جميع البشر.

وكلفناك بهذه المطالب الخمس:

الأول: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ عطاءً واسعاً في الجنة.

الثاني: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ في أمر الدعوة، ولا فيما يطلبون من تغيير أو إهمال

أحكامها، أو بعض ذلك.

الثالث: ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: ولا تطع المنافقين، فلا تسمع لهم ولا منهم، ما يقولون.
 الرابع: ﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾ أي: اترك مجازاتهم على أذيتهم لك، حتى نأمرك بالذي تفعله معهم.

الخامس: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإن من توكل على الله يسر عليه كل عسير.
 ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يكفيك ما تريد.

وبعد، فإن الآيات التالية تأتي بنموذج من أحكام الإسلام التي يدعو إليها النبي ﷺ، والذي يكون سراجاً هادياً للناس في حياتهم بها، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ
 فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩)

يعني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ أي: عقدتم عقد الزواج على
 ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أو الكتابيات ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي:
 تجامعوهُنَّ، فذلك النكاح يترتب عليه ثلاثة أشياء:

الأول: أنه لا عدة على هذه المطلقة ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ أي:
 تحصونها، وهذا: في كل امرأة طلقت قبل الدخول، إلا المتوفى عنها زوجها،
 قبل الدخول، فعليها أن تعتد أربعة أشهر وعشرًا.

الثاني: لها المتعة، وهي النفقة الواجبة لها، على قدر حاله ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ وذلك إن لم
 يسم لها مهر.

الثالث: التسريح بالحسن ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: من غير إضرار منهن.
 ثم تأتي الآيات بعد ذلك بنموذج آخر من أحكام الإسلام، الخاصة بالنبي ﷺ، إذ
 يقول ربنا عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتِ أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
 يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ
 خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ

أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي
أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

والمعنى: ﴿يَسْتَأْيِهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ من النساء سبعة أصناف:
الصف الأول: ﴿أَزْوَاجَكَ﴾ اللاتي في عصمتك، ﴿و﴾ هن ﴿الَّتِي ءَاتَيْتَ﴾ دفعت
﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، وكنّ تسعاً رضي الله عنهن.
الصف الثاني: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من غنائم الحرب،
بالسبي من الكفار، مثل السيدة صفية، والسيدة جويرية، حيث ملكهما
ﷺ، فأعتقهما وتزوجهما.

الصف الثالث والرابع والخامس والسادس: ﴿وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ
خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

وكانت الهجرة: شرطاً في حل هذه الأصناف الأربعة، ثم نسخ.

الصف السابع: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ بلا مهر.

ولهذا الصف شرطان.. هما: موافقة النبي ﷺ ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾.

وخصوصية النبي ﷺ به ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأما غير النبي ﷺ في الواهبه نفسها، فلا تحل له إلا بمهر.

هذا الذي ذكر حكم النبي ﷺ مع نسائه، ولكي لا يظن واحد من المؤمنين، أن
له ما للنبي ﷺ من هذه الخصائص، فإن ربنا عز وجل يقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ أي:
عندنا علم ﴿مَا فَرَضْنَا﴾ وأوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على المؤمنين ﴿فِي﴾ حق
﴿أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ونبينا لهم، أي: في غير هذا الموضع.

ثم يقول ربنا للحبيب ﷺ، وقد وسعنا لك في أمر الزواج: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ
حَرَجٌ﴾ وضيق، وتكون في فسحة؛ من الأمر بما يتناسب مع دعوتك، ونشر رسالتك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لجميع الذنوب ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده.

كذلك: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَاءٍ مِّنْهُمْ وَتُقَوَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَّشَاءٍ وَمَنْ أْبَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَايَتْهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

والمعنى: لا حرج عليك في القسم بالنسبة لمن ذُكِرَ من النساء، والأمر لك في شأنهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت.

﴿تُرْجَىٰ﴾ أي: تؤخر ﴿مِنْ نَّشَاءٍ مِّنْهُمْ﴾ عن نوبتها ﴿وَتُقَوَّىٰ﴾ تقدم ﴿مِنْ نَّشَاءٍ﴾ منهن عن نوبتها، ولا حرج عليك ﴿و﴾ كذلك ﴿مَنْ أْبَغَيْتَ﴾ أردته ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ من هؤلاء النسوة، ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: حرج ﴿عَلَيْكَ﴾ أيضًا.

﴿ذَلِكَ﴾ التخيير لك في هذا الموضوع ﴿أَدَّىٰ﴾ أي: أقرب ﴿أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَايَتْهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

حيث إنهن إذا علمن أن هذا التفويض لك هو من عند الله، استراحن نفوسهن، وذهب التباير بينهن، وجعل الرضا منهن، وقرت العيون.

فإذا قسمت بعد ذلك استبشرن، وفرحن بذلك، وعرفن جميلك عليهن، في تسويتك وإنصافك وعدلك معهن.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة عند المخالفة.

هذا، ولما خير رسول الله ﷺ أزواجه عندما نزل عليه قوله تعالى من نفس السورة: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلٌ لَّا زَوْجَكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتَ أُمْتَعَكُنَّ وَأَسْرِحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]!!

وقد عرفنا أنهن جميعًا، رضوان الله عليهن، قد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وذلك فيما سبق، نقول لما اخترن ذلك: كافأهن الله تعالى، وذلك بقوله للنبي ﷺ:

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

أي: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ﴾ يا محمد ﴿النِّسَاءُ﴾ أي: الزواج بهن ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ أي: من بعد هؤلاء الزوجات التسع، اللاتي قد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ﴿وَلَا﴾ يحل لك كذلك ﴿أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ عن طريق طلاق واحدة وزواج أخرى مكانها، حتى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وبذلك أصبح التسع زوجات هُنَّ نصاب النبي ﷺ، كما أن الأربع الزوجات هن نصاب الرجال من أمته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي: حفيظًا.

يقول بعض العلماء: وكانت هذه الآية، وهذا الحكم، وهو تحريم الزواج على النبي من غير هؤلاء الزوجات التسع، أو الاستبدال بهن الإماء؛ مكافأة لهن على اختيارهن الله ولرسوله والدار الآخرة، ثم نسخ هذا الحكم وأبيح للنبي ﷺ أن يتزوج ما يشاء، ومع ذلك لم يقع منه بعد ذلك زواج.

أيها الأحبة في الله.. إذا كان ما تقدم هو بعض حقوق نساء النبي ﷺ عليه، فإن الله تبارك وتعالى يذكر عقيبها بعض حقوقهن - رضي الله عنهن - على أمة الحبيب ﷺ.. فيقول جل وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ الْحَقَّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفِّفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

هذه الآية الكريمة توضح أحكامًا أربعة على المسلمين، هي من حقوق النبي ﷺ وآل بيته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

الحكم الأول: عدم دخول بيوت النبي ﷺ بدون إذن.

يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ دخولها من النبي ﷺ.

فمثلاً: إذا دعيتُم ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ فادخلوا ﴿غَيْرَ﴾ متطفلين، وغير ﴿نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾ متظرين موعد نضجه، لتدخلوا بدون دعوة ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا﴾ وكلوا.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ وانتهيتُم من أكلكم ﴿فَانْتَشِرُوا﴾ واخرجوا ﴿وَلَا﴾ تمكثوا وأنتم ﴿مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ مع بعضكم البعض.

حيث ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ الفعل ﴿كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ﴾ ممن يفعله ﴿فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ﴾ أن يخرج مَنْ يفعل ذلك.

﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنْ﴾ بيان ﴿الْحَقِّ﴾ والأمر به.. ولذلك قال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ .. ويلاحظ أن هذا تأديب من الله للثقلاء.

الحكم الثاني: فرضية الحجاب على أزواج النبي ﷺ.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: زوجات النبي ﴿مَنْعًا﴾ حاجة ﴿فَسَلُّوهُنَّ﴾ هذه الحاجة ﴿مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ ساتر.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الحكم ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من خواطر الشيطان، وأسلم من عوارض الفتن.

الحكم الثالث: تحريم إيذاء النبي ﷺ مادياً أو معنوياً.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾.

يعني كل ما مُنعتُم فيه مع النبي ﷺ، أو مع زوجاته، فالتزموا به وحافظوا عليه، ولا تؤذوه بالمخالفة فيه، أو في غيره.

الحكم الرابع: تحريم نكاح أزواج النبي ﷺ لأحد من بعده، حياً أو ميتاً.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.

ويختُم ربنا هذه الأحكام بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ أي: مخالفة هذه الأحكام ﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ذنباً ﴿عَظِيمًا﴾ أي: فاجتنبوه.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ من إبداء النبي ﷺ، أو نكاح زوجاته، ﴿أَوْ تَخَفُوهُ﴾ في أنفسكم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه.
 في هذه الأحكام كانت فرضية الحجاب على زوجات النبي ﷺ. ولذلك عندما فرض، قال آباء هؤلاء الزوجات وأبناء بعضهن: يا رسول الله، أو نُكَلِّمُهُنَّ نحن أيضًا من وراء حجاب، فأنزل الله تعالى توضيحًا للدائرة التي لا يجب الاحتجاب منها، قوله سبحانه وتعالى:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْنَّ فِيْ عَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾

أولاً: المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ النساء المؤمنات، والمراد من ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء، دون العبيد الذكور.
 وعلى ذلك فمعنى الآية: أنه لا حرج ولا إثم على نساء النبي أن يتعاملن مع هذه الأصناف المذكورة في الآية، بدون حجاب.

ثم يقول تعالى لهن: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتن بالتحجب منه من غير هؤلاء.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ رقيبًا وعالمًا ومجازيًا.

وبعد بيان هذه الأحكام، بيّن الله عز وجل منزلة النبي ﷺ عنده في الملأ الأعلى، ويأمر أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، وذلك: يوضح أهمية التقيد بالآداب والأحكام السابقة، مع رسول الله ﷺ، وكذلك تعظيمه في العالمين العلوي والسفلي حيث يقول المولى عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾

صلاة الله على النبي: ثناؤه عليه، ومدحه له.

وصلاة الملائكة: دعاء واستغفار.

وصلاة الأمة: الدعاء والتعظيم لأمره.

وقد أمر الله تعالى عباده بالصلاة والتسليم عليه، أي: صلوا عليه وسلموا، وانقادوا لأمره وحكمه؛ طلباً للثواب، والقرب منه.

صلّى الله وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله.

ثم يهدد الله عز وجل من يؤذون الله تعالى ورسوله ﷺ بقوله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٥٧)

يعني ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بما يكرهانه كمن يكفرون بالله، وينسبون إليه الولد أو الشريك.

وَمَنْ يَكْذِبُونَ النَّبِيَّ ﷺ، أو يحاربون سنته وشريعته هؤلاء:

أولاً: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وطردهم من رحمته ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

ثانياً: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: بالغ الغاية في الإهانة والتحقير.

ولأن إيذاء المؤمنين والمؤمنات مما يكرهه الله ورسوله، فقد هدد الله عز وجل - كذلك - من يفعل ذلك، أو يتسبب فيه.. بقوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٨)

أي: إن ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بأي لون من ألوان الإيذاء، ﴿بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: دون ذنب جنوه، أو إثم ارتكبهوه، ووجب فيه الحد، أو التعزير ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا﴾ يعني تحملوا ﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: حملوا أنفسهم البهتان والكذب والزور، والذنب الواضح الجلي.

ويدخل في هذا، الإيذاء المادي: كالتعذيب، والتخويف، والمعنوي: كالسخرية، والاستهزاء، والتقيص من قدرهم.

ولمّا نهى الله تبارك وتعالى عن إيذاء المؤمنات، أمرهن بفعل ما يدفع الأذى عامة عنهن من التستر، والبعد عن مواطن الشبهات، حيث قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٩)

في هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى رسوله ﷺ، أن يأمر النساء المسلمات - خاصة أزواجه وبناته؛ لشرفهن، وكونهن قدوة لغيرهن - أن يدين عليهن من جلابيهن، وأن يتسترن ويحتشمن في ملابسهن.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التستر ﴿أَدْنَىٰ﴾ أي: أقرب ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ به، أنهن كريمات فضليات ﴿فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾ من أهل الفسق، الذين يتعرضون للنساء بما لا يليق. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن تكشف قبل أن تعرف هذا الحكم، والتزمت به بعد أن عرفته.

ولما ذكر ربنا ثلاثة أصناف من المجاهرين بالإيذاء وهم: الذين يؤذون الله، والذين يؤذون رسول الله، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، وهددهم.

ذكر سبحانه كذلك ثلاثة أصناف من المسرِّين بالإيذاء وهم: المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة، وهددهم بقوله تبارك وتعالى:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتْلُوا تَفْتِيلًا ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلَ أَلْسِنَةُ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

أي: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ ويتوقف.

﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر عن نفاقهم.

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: شك وغل وفجور، حامل على المعاصي عن شكهم، وغلهم، وفجورهم.

﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ وهم الذين يُرَوِّجون الإشاعات الكاذبة عن فعلهم هذا، لأن لم ينته هؤلاء عن عداوتهم للمسلمين، وفجورهم فيهم، ونشرهم الإشاعات الكاذبة بينهم ﴿لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنك عليهم، وهذا أولاً.

وثانيًا: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لتطردنهم من المدينة سريعًا، وهم ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مبعدين من رحمة الله.

وَنَالْنَا: ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾ أي: وجدوا بعد طردهم ﴿أُخْذُوا وَقَتَلُوا قَتِيلًا﴾.

ويلاحظ: أن هذه هي سُنَّةُ ﴿اللَّهِ﴾ في أمثالهم من ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي: سبقوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الأمم الماضية ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تغييرًا.

ولمَّا بَيَّنَّ الله عز وجل حالهم وأمثالهم في الدنيا من أنهم: يهانون، ويلعنون، ويقتلون.. بَيَّنَّ كذلك حالهم وأمثالهم في الآخرة، وذكرهم بالقيامة وما يكون لهم فيها، فقال تبارك وتعالى:

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَلِيلَيْنَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾ هؤلاء وأمثالهم ﴿عَنِ﴾ موعِدِ ﴿السَّاعَةِ﴾ وهي يوم القيامة، سؤال استهزاء واستنكار واستعجال، أجبهم، و ﴿قُلْ﴾ لهم: لا علم لي بذلك ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وحده سبحانه.

وقل لهذا السائل: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

فهل آمنت بها؟ وماذا أعددت لها؟ يا أيها المستهزون..!!

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: طردهم من رحمته.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ نَارًا شديدة، يدخلونها ﴿خَلِيلَيْنَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها، كما أنهم ﴿لَا يَخْدُونَ﴾ لهم فيها ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ينقذهم من عذابها.

هؤلاء: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ حينئذ ﴿يَقُولُونَ﴾ بتحسر وندم لا يفيد: ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ حتى لا نلقى هذا المصير.

﴿وَقَالُوا﴾ معللين لكفرهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ رؤساءنا ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ ذوي الحسب والنسب فينا، واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيء ﴿فَأَضَلُّونَا﴾

السَّيْلَ ﴿٦٩﴾ أَي: ضللونا عن طريق الهدى، ثم يدعون عليهم قائلين: ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ جزاء كفرهم هم، وجزاء إغوائهم لنا، ﴿و﴾ كذلك ﴿الْعَنُومُ﴾ واطردهم من رحمتك ﴿لَعَنَّا كِبِيرًا﴾ أي: طرداً شديداً.

لقد هدد الله كل الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين بصفة عامة، بعذاب أليم، فيما سبق من الآيات الكريمة، وهنا يحذر المؤمنين بصفة خاصة، من إيذاء النبي ﷺ بأي لون من الألوان.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوُا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ ﴿٦٩﴾

يعني ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا﴾ تؤذوا نبيكم، و ﴿تَكُونُوا﴾ معه بذلك ﴿كَالَّذِينَ ءَاذَوُا مُوسَى﴾ بوصفه بما ليس فيه ﴿فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ عنه ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: صاحب منزلة عالية.

ثم يرشد الله المؤمنين إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال، فقال عز وجل:

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧١﴾
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عليكم بأمرين؛ لتنالوا نتيجتين طيبتين: أما الأمران فهما:

الأول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل الخير، وترك الشر.

الثاني: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: صدقاً صائباً.

وأما النتيجتان فهما:

الأولى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ﴾ ربكم ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ فتكون سبباً في دخولكم الجنة.

الثانية: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ السابقة بمحوها، والمستقبلية بإلهاكمم التوبة منها.

هذا، وبتقواكم الله، وقولكم قولاً سديداً: تكونوا قد أطعتم ربكم.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

وليكن معلوماً أن تقوى الله والقول السديد - كما هو واضح - طاعة..

والطاعة من الفروض.. والفروض تكليف.. والتكليف أمانة.. وفي حمل الأمانة مشقة، لذلك يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٣)

يعني ﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ حمل الأمانة، وهي الفروض التي في فعلها ثواب، وفي تركها عقاب ﴿عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حيث خلق ربنا فيهما فهما ونطقا.

أندرون ماذا كان موقفهم..؟

يقول ربنا سبحانه: ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ من غير معصية؛ حيث ﴿أَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: من عدم قدرتهم على القيام بواجباتها؛ تعظيماً لدين الله، فقبل الله اعتذارهما، وعرضها على الإنسان، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ على ضعفه، في الوقت الذي اعتذر عنها ما هو أقوى منه، ولذلك يقول ربنا عز وجل: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الإنسان ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بحجمه وقدره؛ حيث حملها، ولم يف بها.

وكان حملها على هذا النحو: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ الذين ظلموا فحملوا الأمانة، وجعلوها فخانوها.

﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ لوفائهم بعهدهم، وأدائهم للأمانة التي حملوها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ ساتراً للتائبين ﴿رَحِيمًا﴾ دائم الرحمة بالمؤمنين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة سبأ

هذه السورة مكية، وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

نعم ﴿الْحَمْدُ﴾ المطلق في الدنيا والآخرة ﴿لِلَّهِ﴾ رب العالمين.

﴿الَّذِي لَهُ﴾ جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وما بينهما، ملكاً وتصرفاً.
﴿و﴾ الذي ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ المطلق ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ حيث يحمده أهل الجنة؛
سروراً بالنعيم، وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله، وشرعه، وقدره ﴿الْخَبِيرُ﴾
بخلقه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الذي ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كماء وكنوز،
وغيرهما ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كنبات وغيره.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الذي يعلم ﴿مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من رزق وغيره ﴿وَمَا
يَعْرُجُ﴾ أي: يصعد ﴿فِيهَا﴾ من عمل للعباد، وغيره.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده؛ حيث ينزل إليهم ما يحتاجون إليه
﴿الْغَفُورُ﴾ عن ذنوبهم إذا تابوا إليه.

هذا هو الإله العظيم، صاحب هذه النعم العظيمة كفر به أناس من خلقه، وأنكروا لقاءه...!!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله إنكاراً للبعث: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ وليس هناك حساب ولا جزاء.

﴿قُلْ﴾ لهم ردًا على إنكارهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ أي: نعم، لتأتينكم وربي عالم ﴿الْغَيْبِ﴾ كله، الذي ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مما ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ ولا يغيب عنه مثقال ذرة مما ﴿فِي الْأَرْضِ﴾.

كما أنه لا كل ذلك ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا﴾ وهو مدون ومسجل ومذكور ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ فكيف لا يعثكم، حتى وإن تلاشت، وتفرقت وغابت أجزاؤكم؟

ثم بين تعالى حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة، بقوله سبحانه:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله في يوم الساعة هذا!!

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جزاء حسنًا يبينه ربنا سبحانه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن في الجنة ﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ سَعَوْا﴾ في الصد عن سبيل الله، وتكذيب الرسل، وإبطال ﴿ءَايَاتِنَا﴾ أي: القرآن ﴿مُعْجِزِينَ﴾ لنا، ظنًا منهم أننا لن نقدر عليهم، ولن نبعثهم ولن نعاقبهم، فلمهم سوء الجزاء الذي يبينه ربنا سبحانه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ﴾ وهو أسوأ العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ غاية الألم.

وهناك حكمة أخرى لإعادة الأبدان، وقيام الساعة هي:

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٦)

يعني ﴿وَيَرَى﴾ المؤمنون من أهل الكتاب ومن أتباعك، وهم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ حينما يعاينون القيامة وأحوالها، أن ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وأخبر بما يرون، وهو القرآن: هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

﴿و﴾ يستيقنون أنه كان ﴿يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهو دين الإسلام، المؤدي للنجاة من أهوال هذا اليوم.

ومع ظهور أمر الساعة، ومع وضوح الأدلة على وقوعها، فإن الكفار يستهزئون ويتعجبون من الإخبار عنها، يقول عز من قائل:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمْزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧)

أي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استهزاء لبعضهم البعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ لم يصرحوا باسمه، مع أنه في غاية الشهرة بينهم، وهو محمد ﷺ؛ تقيلاً لشأنه ﴿يُنْبِئُكُمْ﴾ يخبركم أنكم ﴿إِذَا﴾ متم، ودفنتم، و ﴿مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمْزَقٍ﴾ أي: وبليتم تماماً ﴿إِنَّكُمْ﴾ بعد كل ذلك ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وتبعثون..؟

ثم لم ينتظروا إجابة لبعضهم، بل أجابوا هم قائلين:

﴿أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (٨)

ما الذي دفعه إلى ما يقول؟ هل يكذب على الله؟ أو أنه أصيب بمس الجنون؟

ويرد عليهم رب العزة استهزاءهم بقوله تبارك وتعالى:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ﴾
 ﴿بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾

أي: لا هو افتراه على الله كذبًا، ولا هو به جنة، بل هم في كمال اختلال العقل، وغاية الضلال عن الفهم والإدراك، الذي هو الجنون حقيقة، وفيما يؤدي إليه من العذاب، ولذلك: يقولون ما يقولون!!

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا ﴿إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فيعرفوا عظمة الله، وقدرته؛ فيؤمنوا به، وبالبعث؟

إنهم لو نظروا نظر اعتبار، لآمنوا ولكنهم عموا، فأنكروا، وكذبوا، ولكننا ﴿إِنْ شَأْنَهُ خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا﴾ أي: قطعًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ لفعلنا ذلك بقدرتنا عليهم؛ جزاء ظلمهم وكفرهم، ولكننا نؤخر ذلك عنهم لحلمنا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكون الرحيب، وما يرون فيه من عجائب صنع الله ﴿لَآيَةً﴾ دالة على قدرة الله على البعث ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾ الله ﴿مُنِيبٍ﴾ راجع إليه بالتوبة، غير مصر على المعصية، ولا متعصب لها.

ولمَّا ذكر ربنا عز وجل من ينيب من عباده إليه، أتبعه بذكر من أناب إلى الله بالفعل، وشكره على النعمة، ومن هؤلاء داود عليه السلام، الذي ندم ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

كما بين سبحانه وتعالى ما آتاه الله على إنابته، فقال عز من قائل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٍ أَوِيٍّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَاقِعًا فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١١﴾

نعم، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ﴾ عليه السلام ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ وهو النبوة والكتاب، ثم قلنا أولاً: ﴿يَجِبَالٍ أَوِيٍّ﴾ رجعي ﴿مَعَهُ﴾ التسبيح، فكان يسمع صوتها وهي تسبح معه، بل يروى أنه كان إذا أصابه تعب وسكت، سبحت الجبال، فيسمع صوتها؛ فينشط بالتسبيح من جديد.

﴿و﴾ ثانيًا: نادينا ﴿الطَّيْرَ﴾ أيضًا أن تسبح معه.

﴿و﴾ ثالثًا: ﴿الَّنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ جعلناه لبنًا في يده يشكله كيف يشاء، دون نار

يدخل فيها، أو مطرقة يدق بها.

وأمرناه قائلين: ﴿إِنْ أَعْمَلْ﴾ من هذا الحديد دروعًا ﴿سَبَّغْتَ﴾ واسعة، تامة ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرَدِ﴾ أي: اجعلها دقيقة الصنع، مريحة للابسها، حافظه له ﴿و﴾ قلنا لأهله: ﴿أَعْمَلُوا﴾ آل داود معه عملاً ﴿صَلِّحًا﴾ يتقبله الله منكم.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مراقب لكم ﴿بَصِيرٌ﴾ بكم، وسأجازيكم عليه.

ومن عمل من أهله عملاً صالحًا، وأناب لله أيضًا: ولده سليمان فاتاه الله خيرًا، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلِسَلِّمَنَّ الرِّيحَ غُدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَاحُهاَ شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذْنِ رَبِّهٖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ أنعمنا على داود أيضًا، حيث سخرنّا ﴿لِسَلِّمَنَّ﴾ ولده، ما يلي:

أولًا: ﴿الرِّيحَ﴾ التي كان ﴿غُدُوهاَ﴾ أي: سيرها في الغداة، وهو النهار، مسيرة شهر، وسيرها في الليل و ﴿رَوَاحُهاَ﴾ أي: عودتها مقدار شهر، والتي كانت تحمله إلى حيث يشاء.

﴿و﴾ ثانيًا: ﴿أَسَلْنَا لَهُ﴾ أي: أذبنا من الدويان والسيولة ﴿عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ وهو

النحاس، إذ جعل الله النحاس يسيل من عين كما يسيل الماء، معجزة لسليمان عليه السلام.

﴿و﴾ ثالثًا: سخرنّا له الجن، فكان ﴿مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطيعًا له

﴿إِذِذْنِ رَبِّهٖ﴾ بقدرة، وتسخيره له.. ﴿و﴾ كان ﴿مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ

أَمْرِنَا﴾ له بطاعة سليمان، ويهرب ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

وهو الحريق.

وكان هؤلاء الجن ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ حسبما يأمرهم به سليمان ﴿مِنْ﴾: ﴿مَحْرِبَ﴾ أبنية عالية يصعد عليها ﴿وَتَمَثِّلَ﴾ ولم يكن ذلك حراماً في شريعة سليمان عليه السلام ﴿وَجِفَانِ﴾ أي: آلات يؤكل فيها ﴿كَلْجَوَابِ﴾ مثل: الأحواض الكبيرة. ﴿وَقُدُورٍ﴾ أي: آلات يطبخ فيها ﴿رَاسِيَتٍ﴾ لا تنقل من مكانها لعظمتها وضخامتها.

ثم قلنا: ﴿أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ﴾ معه بالطاعات ﴿شُكْرًا﴾ على ما أنعم عليكم به في الدنيا والآخرة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهم: العاملین بطاعتي، شكراً لنعمتي. وظل الجن يعملون لسليمان ما يشاء حتى وافاه الأجل واقفاً متكئاً على عصاه. وما علمت الجن أنه مات..!! يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ أي: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على سليمان ﴿الْمَوْتَ﴾: مات.

ومكث قائماً مستنداً على عصاه، والجن تعمل بين يديه هذه الأعمال الشاقة، ولا تدري أنه مات. وظل الحال على ذلك فترة من الزمان حتى علموا أنه مات. ولكن كيف عرفوا أنه مات..؟

يقول سبحانه وتعالى: و ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ﴾ وهي الأرضة التي تأكل الخشب. حيث صارت ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ أي: عصاه، وهو واقف متكئ عليها، فلما أكلتها: انهارت العصا، وسقط سليمان عليه السلام.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ أمرين:

الأول: أنه مات.

الثاني: أنهم لا يعلمون الغيب؛ بدليل ﴿أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ ومكثوا مدة موت سليمان واقفاً ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ لهم.

هذه هي قصة داود وسليمان عليهما السلام، وهي قصة من أناب إلى الله بالطاعة، وشكر الله على نعمه وآلائه.

وإليكم قصة مَنْ لم يطع الله، ولم يشكر نعمه، ويعترف بآلائه وهي قصة سبأ، وهم قوم كانوا باليمن، يقول الله تعالى عنهم:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

نعم، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ ومحل إقامتهم ﴿آيَةٌ﴾ تدل على قدرة الله وإحسانه، ووجوب شكره، هذه الآية هي ﴿جَنَّتَانِ﴾ بستانان كبيران، أحدهما ﴿عَنْ يَمِينٍ﴾ من مساكنهم ﴿و﴾ الثاني عن ﴿شِمَالٍ﴾ من مساكنهم، هذه البساتين مليئة بالخيرات وأنواع الثمار والفواكه الكثيرة.

وقلنا لأهل سبأ على ألسنة رسلنا إليهم: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ونعمه عليكم. ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ هذا الرزق، وهذه النعم، واعلموا أن بلدتكم هذه، التي تقيمون فيها ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وربكم الذي يرزقكم ﴿رَبٌّ غَفُورٌ﴾..!! فآمنوا به، واعبدوه، وشكروا له.

ماذا فعلوا..؟

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

أي: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان، ولم يعبدوا الله تعالى، ولم يشكروه على هذه النعم التي يعيشون في ظلها، أتدرون ماذا فعل الله بهم..؟

يقول الله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بقدرتنا مطراً غزيراً، تجمع منه ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الذي حطم الجسور، وهدم السدود، وأغرق البساتين، وأتلف الثمار، وضاعت منهم النعم.

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المليئتين بالخيرات ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ﴾ أي فيهما: ﴿أُكُلٍ﴾ ثمر ﴿خَمْطٍ﴾ بشع مر، ﴿وَأَثَلٍ﴾ نبات لا ثمر له، ولا فائدة منه.

﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ أي: نبق ﴿قَلِيلٍ﴾.. وهذا أفضل ما كان عندهم بعد هذا

التبديل، وهكذا تبدل حالهم بعد الراحة شقاء، وبعد الغنى فقراً، وبعد النعيم ذلاً وهواناً.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (١٧)

يعني ﴿ذَلِكَ﴾ كان جزاؤهم، الذي ﴿جَزَيْنَهُمْ﴾ به ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ بربهم، وأعرضوا عن طاعته، ورفضوا شكره.

﴿وَهَلْ نُجْزِي﴾ بمثل هذا ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾؟

كان هذا حديث القرآن عن نعم الله الداخلية على أهل سبأ، والتي لم يشكروا الله عليها؛ فأبدلها لهم كما رأينا، وهناك حديث آخر عن نعم الله الخارجية عليهم، يقول الله عز وجل:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ (١٨)

أي: ﴿و﴾ من نعم الله عليهم أننا ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي قري الشام ﴿قَرْيَ ظَهْرَةَ﴾ واضحة، متواصلة من اليمن إلى الشام ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ المريح لهم؛ حيث كانوا يأتسون بأهل هذه البلاد، ويستريحون فيها خلال سفرهم.

وقلنا لهم: ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ حيث شئتم ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ دون خوف ﴿ءَامِنِينَ﴾ على أنفسكم، وأمتعتكم.

فهل شكروا الله على ذلك؟ يقول الله تعالى:

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَزْقٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٩)

يعني: ﴿ف﴾ بطروا النعمة، وطفوا، وستموا الراحة، وتمنوا طول الأسفار، والكد في المعيشة.. و ﴿قَالُوا﴾ يا ليت المسافات بين هذه القرى كانت بعيدة، ثم دعوا ربهم قائلين يا ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وعجل الله لهم إجابة هذه الدعوة بتخريب تلك القرى الظاهرة، العامرة، المتواصلة، التي كانوا يستريحون فيها، ويأتسون لأهلها.

﴿و﴾ بذلك ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بكفرهم، وعدم شكرهم هذه النعم بل أكثر من هذا يقول ربنا عز وجل: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم، يتحدث الناس بقصتهم، ويتعجبون من سفاهتهم.

﴿وَمَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: قبائلهم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يعني: فرقناهم في البلاد، فرقة لا يلتصقون بعدها أبداً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من حال الشاكرين، ووبال الكافرين ﴿لَايَتٍ﴾ وعبر ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله، والبعد عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ على نعم الله. هذه هي قصة أهل سبأ.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

يعني ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي: حقق ظنه فيهم، وكان ظنه أن يتبعوه إذا أغواهم.. فأغواهم ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ أي: أهل سبأ.

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: قلة من أهل سبأ، وهم المؤمنون فيهم لم يتبعوه، بل آمنوا بالله، وشكروا بالنعم، وأما الغالبية منهم فقد اتبعوه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ﴾ حينما اتبعوه ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾ يكرههم به على الكفر. وما اتبعوه ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ لنظهر ﴿مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ منهم ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا﴾ أي: الآخرة والإيمان بها ﴿فِي شَكٍّ﴾ من وقوعها.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ فليحذر العصاة غضبه سبحانه، وليشكر المؤمنون نعمه.

وهكذا بيّن الله حال الشاكرين، وحال الكافرين، وكان المقصود بهذا البيان وعظ المعاندين لمحمد ﷺ، المستهزئين بما يقول، لذلك يقول ربنا للحبيب ﷺ:

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

أي: قل لهم يا محمد: ﴿أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم آلهة، وعبدتموهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ليكشفوا عنكم الضر، وينفعوكم.

ثم يقول ربنا مبيناً حال هذه الآلهة المزعومة، إنهم أي: هذه الآلهة المزعومة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى ينفعونكم أو يضرؤنكم.

﴿و﴾ أيضًا ﴿مَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي في السماوات وفي الأرض ﴿مِنْ شِرْكٍَ﴾ يعني: من مشاركة لله، لا في الخلق ولا في الملك لهما.

﴿و﴾ ثالثاً ﴿مَا لَهُ﴾ سبحانه ﴿مِنْهُمْ﴾ من هذه الآلهة المزعومة ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يعينه على تدبير شؤون الخلق فهم فقراء، ضعفاء، عجزة. فكيف تعبدونهم؟ كما أنهم لا يملكون الشفاعة لكم، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ﴾ من أحد لأحد ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ تعالى أن يشفع، وحال هذا الإذن بالشفاعة يصيب الجميع الفزع الشديد.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ كشف عنها الفزع، ﴿قَالُوا﴾ لبعضهم البعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة؟

﴿قَالُوا﴾: يقول ربنا القول ﴿الْحَقُّ﴾ فيها، حيث أذن بها.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَلِيُّ﴾ القاهر فوق خلقه ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم.

ثم يقول رب العزة للنبي ﷺ:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ بالمطر، ومن ﴿الْأَرْضِ﴾ بما ينبت من الزرع؟

ثم أمره أن يجيب عنهم، قائلاً له: قُلْ أَنْتَ: ﴿اللَّهُ﴾ بدلاً منهم؛ لأنهم قد لا ينطقون بألسنتهم، بالرغم من أن قلوبهم تقرر بذلك.

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي: أحدنا ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾..

ولذلك فعلى كل واحد منا أن يراجع نفسه، وفي هذا منتهى الأدب في الحوار، ومنتهى الذكاء في الإقناع.

ثم يأمره رب العزة أن يزداد في التواضع أكثر وأكثر، من باب قطع طريق المكابرة والعناد عندهم، إذ يقول له: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا﴾ إن كنا على خطأ ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم أي: كل منا مسؤول وحده عن عمله، ولا مسؤولية عليه لعمل الآخر، والفيصل بيننا يوم القيامة، لذلك: ﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة، مع جميع الخلائق ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي: يحكم ﴿بَيْنَنَا﴾ فيما نحن عليه، وما أنتم عليه، وهو سبحانه يحكم ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، وهو ﴿الْفَتَّاحُ﴾ أي: الحاكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحقائق الأمور، والصواب فيها.

ثم ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَرُونِي﴾ معبوداتكم ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُمُ﴾ أي: ألحقتموهم به، وجعلتموهم ﴿شُرَكَاءَ﴾ لله في العبادة. ﴿كَلَّا﴾ ارتدعوا ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ سبحانه، المستحق وحده للعبادة؛ إذ هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيره لخلقه، فلا يعقل أن يكون له شريك في ملكه.

على كل حال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

يعني ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ للناس كلهم إلا ﴿بَشِيرًا﴾ للطائعين المؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعصاة الكافرين بالنار.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عموم رسالتك، وأنك بشير، وأنك نذير؛ ولذلك يعاندونك ويكذبونك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٩)

أي: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين بالمؤمنين، وبالنبي ﷺ ووعدهم، ﴿مَتَى﴾ يكون ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ بالعذاب، الذي تخوفوننا به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في كلامكم عنه؟ أجبههم يا محمد..

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٠)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ تبعثون فيه، وتحاسبون، وتعذبون، وهذا اليوم له موعد محدد ﴿لَا تَسْتَحْزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يستأخر لرغبة أحد، ولا يتقدم لرجاء أحد.

انتظروا ما يحدث لكم، وينزل بكم فيه!!

بعد كل هذا الإقناع والتخويف يقول رب العزة:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣١)

يعني ﴿و﴾ بالرغم من وضوح الدلائل على صدق محمد ﷺ، وعلى مجيء اليوم الآخر ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكل تبجح ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ الذي تتلوه علينا ﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مما يخبر عنه من أمور الآخرة، وما فيها من حساب وغيره، ولأن النقاش المألوف مع هؤلاء المعاندين لا يفيد.. فإن القرآن يعرض بعض مشاهدهم في الآخرة، فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ هؤلاء وأمثالهم: ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِنْدَ﴾ حساب ﴿رَبِّهِمْ﴾ وهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ يتعاطبون ويتلاومون..

حيث ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ فيهم، بكل غيظ وحقد: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ﴾ الذين منعمتمونا، وخذعتمونا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، وكنا مع الفائزين.

وهنا يكون التبري منهم..

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ (٣٢)

أي: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا﴾ أمامهم فيها، وأطاعوهم مع الكفر: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ﴾ ومنعناكم ﴿عَنِ الْهُدَىٰ﴾ مع المهتدين، والإيمان باليوم الآخر، والاستعداد له، مع المؤمنين ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ به محمد ﷺ، وبلغكم به الدعاة والعلماء.

أبدا نحن ما منعناكم، وأين كانت عقولكم؟..

﴿بَلْ كُنْتُمْ﴾ بطبعكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ حيث عرضنا عليكم فقط الكفر فكفرتم، دون إلزام منا لكم ولا إرغام.

فهل يسكت الذين استضعفوا؟ كلا..

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا﴾ وهم الأنبياء ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ رداً عليهم وتكديباً لهم: ﴿بَلْ﴾ أنتم السبب في كفرنا، وفي ضياعنا اليوم؛ حيث كان ﴿مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ منكم بنا، إغراء تارة، وتهديداً أخرى، ﴿إِذْ﴾ كنتم ﴿تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ نعبدهم معكم.

وهنا.. تنقطع حجة الذين استكبروا فلا يستطيعوا رداً، وتتكشف الحقيقة الكاملة والخديعة السابقة للذين استضعفوا، ولا تفيدهم ردودهم.

فيستكون، ويندمون، يقول الواحد القهار: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ على كفرهم ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

﴿و﴾ هكذا: ﴿جَعَلْنَا الْأَعْلَلَ﴾ القيود ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ زيادة على تعذيبهم في النار.

خبروني بربكم: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ الآن ﴿إِلَّا﴾ الجزاء العادل، بسبب ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

ثم يقول ربنا عز وجل تسلياً للنبي ﷺ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٤)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: لم نبعث في أهل قرية رسولاً من الرسل يُنذِرهم عذابنا ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وهم أغنياؤها وأهل التنعيم فيها ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣٥)

أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتناؤه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، ويكون الرد على منطقهم الفاسد هكذا...

﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦)
﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ (٣٧)

يعني ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِن رَّبِّي﴾ يعطي المال والدنيا لمن يحب وللمن لا يحب، ولذلك ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي يوسعه ﴿لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيقه على من يشاء من عباده، وفق حكمته ومشيبته، وليست وفق محبة الله للعبد أو عدم ذلك.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيظنون خطأ: أن التوسعة علامة الرضا، وأن التضيق على غير ذلك، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ هذه ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ هؤلاء، في ذات الوقت ﴿بِ﴾ الأشياء ﴿الَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: ليست دلالة على محبتنا لكم ﴿إِلَّا﴾ أن ﴿مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فهو القريب منا، والمحجوب إلينا، ثم يقول تعالى عن جزاء من آمن وعمل صالحاً: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ﴾ أي: تضاعف حسناتهم الواحدة عشراً، ثم إلى سبعمائة ضعف، وذلك ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من الصالحات.

إضافة إلى ذلك: ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفِ أَيْ الْجَنَاتِ مُقِيمُونَ﴾ ﴿ءَامِنُونَ﴾ من كل خوف وأذى.

ولمزيد الإنعام على مَنْ آمَن وعمل صالحًا، يذكر ربنا جزاء أعدائهم، فيقول تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٣٨)

أي: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي﴾ إبطال ﴿ءَايَاتِنَا﴾ والصد عن سبيل الله، وهم يظنون أنهم ﴿مُعْجِزِينَ﴾ لنا، ولن نعذبهم ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ لا يفرون منه، ولا يغيبون عنه.

مرة أخرى، بخصوص الأموال والأولاد..

﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩)

يعني ﴿قُلْ﴾ لهم، وأكد عليهم: أن يفهموا قضية الرزق فهما صحيحا، حيث ﴿إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ لحكمة يدركها هو، حيث يجعل هذا غنياً وهذا فقيراً.. إلخ. لذلك آمنوا، وأنفقوا، فهو خير لكم.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كثير أو قليل، وما دام في سبيل الله: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ويزيده لكم. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وبعد أن فند الله تعالى لهم شبهة افتتانهم بسعة الرزق، وغرورهم بكثرة الأموال والأولاد، يفند لهم ويبطل زعمًا آخر من مزاعمهم، فيقول عز من قائل:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤١)

أي: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ المولى سبحانه وتعالى ﴿جَمِيعًا﴾ الذين استكبروا، والذين استضعفوا، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ موبخًا للكافرين ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ الكافرون ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: أنتم أمرتموهم بعبادتكم؟

فتجيب الملائكة ربها: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ نحن عبيدك، نبأ إليك مما قالوه، ثم تقول: ﴿بَلْ هُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، وهم الذين أضلوهم، وزينوا لهم عبادة الهوى والأصنام، بل ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ متبعون لهم، وخاضعون.

يقول ربنا وهو الحكم العدل:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٢)

نعم، في يوم القيامة لا يملك أحد لأحد شيئاً، ويقول ربنا سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وكفروا: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ فهذه هي النار ﴿الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ الرسل.

هؤلاء هم الكفار، وهذا بيان بعض أحوالهم التي يصيرون إليها، وينتهون عندها؛ نحن نحذرهم الآن منها..

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَتَنَتَّى قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانُوا يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٣)

﴿و﴾ مع ذلك فهم ﴿إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ من القرآن، الدالة على وحدانية الله، وقدرته، واليوم الآخر، وهي آيات بيّنات واضحات، لا لبس فيها، ولا غموض، كان موقفهم هكذا:

أولاً: شككوا في دعوته ﴿قَالُوا﴾ للناس ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾ ويمنعكم ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ﴾ فلا تطيعوه.

ثانياً: كذبوه وكذبوا ما جاء به ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ كذب لا أصل له، اختلقه من نفسه.

ثالثاً: وصفوه بالسحر ليصرفوا الناس عنه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ به ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: سحر واضح ظاهر.

ما الذي دفعهم إلى هذا العناد، وإلى هذه الأقوال؟ خاصة:

﴿وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ كِتَابٍ يَذْرُؤُنَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٤٤)
يعني لم يُصِرُّوا على الشرك، وتقليد الآباء، ورفض الحق، وتكذيبه على هذا النحو!! مع
أننا ﴿وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ كِتَابٍ يَذْرُؤُنَهَا﴾ قبل القرآن، فتكون حجة ولو واهية لهم في
موقفهم المعاند هذا!!

﴿و﴾ كذلك ﴿مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ فيكون حجة
ولو واهية لهم في موقفهم المعاند هذا!!

على أية حال عليهم أن يتعظوا بمن سبقهم من المكذبين.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٥)

أي: ﴿و﴾ قد ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم ﴿وَمَا بَلَّغُوا﴾ أي: ما بلغ
أهل مكة ﴿مِعْشَارَ﴾ عشر ﴿مَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾ الذين من قبلهم، من طول الأعمار،
وكثرة الأموال والأولاد... ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي: الأمم السابقة؛ فأهلكناهم.

﴿ف﴾ انظر ﴿كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كان عقابي لهم، ونكالي بهم، فاتعظ.

هذا، وبعد أن ذكرت آيات السور الدلائل الكثيرة على وحدانية الله تعالى وإثبات رسالة
النبي ﷺ، وحتمية اليوم الآخر، تؤكد عليها هنا في صورة موجزة مرة أخرى، حيث يقول الله
تعالى للنبي ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئَىٰ وَفَرَدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكُوا مَا
بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦)
يعني ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم﴾ بصفة ﴿وَاحِدَةٍ﴾ تصفون بها.

وإذا فعلتموها وصلتم إلى الحق، وهي:

أولاً: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي: لوجهه خالصاً، لا لعصية، ولا لقومية، ولا لغيره.
وذلك طلباً لمعرفة الحق فقط، على أن تكونوا ﴿مَشْئَىٰ وَفَرَدَىٰ﴾.

وفي هذا تأكيد للوحدانية، حيث يقومون لله وحده، لا لغيره.

ثانياً: ﴿ثُمَّ نَفَكْنَا﴾ في أمر محمد، فتعلموا أنه ﴿مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون كما تزعمون ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ وفي هذا تأكيد لرسالة النبي ﷺ؛ حيث يعلمون أنه ليس بمجنون، بل هو نذير.

ثالثاً: تتأكدون أنه نذير لكم ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في يوم القيامة، إن بقيتم على كفركم، وفي هذا تأكيد على الإيمان باليوم الآخر.

ولكي لا يكون النبي محل تهمة عندهم، ولا صاحب مصلحة منهم، يقول له ربه تبارك وتعالى:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ على إنذاري لكم، ودعوتي إياكم للإيمان.. وإن كنت قد سألتكم شيئاً ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ فخذوه، وأنتم تعلمون جيداً أنني ما سألتكم أجراً أبداً، حتى أكون صاحب غرض، أو طالب منفعة منكم، ولكن النفع في دعوتي إياكم هو لكم أنتم، ولكم وحدكم.

وأما أنا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أطلب منه القبول، وأطلب منه الثواب، ومنه فقط لا من غيره.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يعلم صدقي وإخلاصي.

يا محمد: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩)

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ﴾ يدفع ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي ينزله على أنبيائه، ومنه ما نزل عليّ، يدفع الباطل بصفة عامة، وما أنتم عليه بصفة خاصة، فهو سبحانه ﴿عَلَمُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يعلم الغيب إلا هو.

و ﴿قُلْ﴾ لهم كذلك: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ بالإسلام وذهب الباطل وهلك، ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ فلا حياة للباطل ولا بقاء، والحق هو المنتصر، وهو الباقي.
ثم يبين ربنا عز وجل على لسان نبيه، أن الهداية فيما جاء به الوحي، فيقول تعالى:

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَفَّتْ إِلَهُهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: ما دام الحق أصبح واضحاً؛ فإنه من ضل ﴿فَإِنَّمَا﴾ يَضِلُّ ﴿عَلَى﴾ نفسه حتى، ولو كنت أنا، ومن اهتدئ فيهدي الله سبحانه وتعالى، فابحثوا عن هديه، وآمنوا به ﴿إِنَّهُ﴾ عز وجل ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده، وما أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم ويجازيني ويجازيكم، كل منا بما يستحق.

ثم تعرض السورة علينا مشهداً من مشاهد بعض الكافرين في يوم القيامة، وهم الذين كانوا يقولون في الدنيا: ﴿لَنْ نُؤْمِكَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١].
حيث يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾
﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ﴾
﴿بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٣﴾

يعني ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ هؤلاء الكافرين يوم البعث ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾ من قبورهم، لرأيت أمراً عجيباً!!

حيث يقول ربنا ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ ولا مهرب لهم منا ﴿وَأُخِذُوا﴾ قسراً ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وهو القبور ﴿وَقَالُوا﴾ في هذه اللحظة ﴿ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ أي: بالله، أو الرسول، أو القرآن، أو اليوم الآخر، وتبنا إلى الله مما كنا فيه. ولكن هيهات!!

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾ أي: التناول لهذه التوبة ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عليهم، وهو الدنيا؛ حيث كانت متاحة لهم، ﴿و﴾ لكنهم ﴿قَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ أي: بالله، أو

الرسول، أو القرآن، أو اليوم الآخر ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ حينما كانوا في الدنيا.
 ﴿وَالْعَجِيبُ فِي أَمْرِهِمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا ﴿يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ جَهْلًا؛ حَيْثُ يَنْكُرُونَ
 الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عَنِ الصَّدَقِ؛ الَّذِي عَايَنُوهُ الْآنَ، وَفِي هَذِهِ
 اللَّحْظَةِ يَتَمَنُّونَ الرَّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَيَشْتَهُونَ الْإِيمَانَ، لِيَتَخَلَّصُوا بِهِ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ
 الْمُهِينِ الْمُقِيمِ.

ولكن..!! يقول ربنا عز وجل:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ
 مُرِيبٍ﴾

يعني ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان، أو الرجوع إلى الدنيا لعمل
 الصالحات، وأصبح من المستحيل عليهم الوصول إلى هذه الأمانى.

وذلك: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ أشباههم في الكفر ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ حيث تمنوا ذلك
 لَمَّا عَايَنُوا الْعَذَابَ!! وهكذا استحقوا العذاب، ويخلدون فيه، حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي
 شَكٍّ﴾ من الحق الذي جاء به محمد ﷺ ﴿مُرِيبٍ﴾ من الريبة، وهذا من باب التأكيد،
 كقولهم: عجيبٌ عجيب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر

هذه السورة مكية، وهي تسمى كذلك بسورة الملائكة، وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتُلُكْ وَرُبَّعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾

هذه السورة: هي خاتمة السور الخمس التي بدأت بالحمد لله، وهي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وقد حمد الله تعالى نفسه تعليمًا وتعظيمًا، وقد وصف الله نفسه بعدة صفات:

الأولى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما على غير مثال سابق.

الثانية: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ بينه وبين أنبيائه ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ﴾ متعددة للملك الواحد ﴿مَّتَنَّى وَتُلُكْ وَرُبَّعٌ﴾ وأكثر من ذلك.

الثالثة: المشيئة المطلقة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ أنواعًا، وأوصافًا، الخ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ سبحانه وتعالى.

الرابعة: القدرة التامة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر.

الصفة الخامسة:

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِيَّ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢﴾

أي: لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لا مانع لما يعطي، ولا معطي لما يمنع.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل ما يقدر، ويحكم به.
وما دام ربنا كذلك، فكل الفضل منه، وكل النعم منه، ولذلك ينبغي أن يكون التوجه له،
والإخلاص له، والتعبد له.

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا﴾ بالسنتكم وقلوبكم ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي كثيرة لا
تحصى ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] واشكروه سبحانه عليها.

وإلا تفعلوا، فخبروني ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾
يستحق الذكر والشكر..؟

كلا.. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صاحب هذه النعم، وخالق السموات والأرض، والذي
يرزق عباده، والذي يستحق الشكر والعبادة وحده.

بعد كل هذا...!! ﴿فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ بأي وجه تصرفون عن الإيمان به، وتوحيده،
وشكركه، وتكذبون الرسل..؟

على أية حال:

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ﴾ بعد هذا كله، فلا تهتم ولا تحزن، وذلك لسببين:

الأول: لست وحدك في ذلك ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فاصبر كما صبروا.

الثاني: سنجازيهم على كفرهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وذلك في يوم الجزاء.

وبعد أن ذكر ربنا خلقه بنعمه، وطالبهم بالشكر عليها، يحذرهم من الغرور بالدنيا
والشيطان، ويطلبهم بالعمل الصالح، إذ يقول جل وعلا:

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ
الْغُرُورُ﴾

يعني ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث والحساب ﴿حَقٌّ﴾ فآمنوا به.
وانتهبوا جيداً ﴿فَلَا﴾ ينبغي أن ﴿تَفْرَنَكُمُ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ ببهجتها وزخرفها
ومتاعها، عن الاستعداد له.

﴿وَلَا﴾ ينبغي أن ﴿يَفْرَنَكُمُ﴾ كذلك ﴿بِاللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿الْغُرُورُ﴾
وهو الشيطان عن المسارعة في الخير.

ثم يبين ربنا عداوة هذا الشيطان، فيقول عز وجل:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ﴾

أي: هو عدو لكم، عداوته قديمة، وعداوته شديدة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لكم في
عقيدتكم، وفي عبادتكم، وفي جميع أموركم، وهو لا يريد لكم ولا منكم، إلا أن تكونوا
معه ﴿مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وهي جهنم.

على كل حال، مَنْ أطاعه هلك، وَمَنْ ابتعد عنه وعصاه نجا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ﴾

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأطاعوا الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وتغلبوا على وسوسة الشيطان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾
ولم يغتروا بالدنيا: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما سبق من ذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما
فعلوه.

الذين كفروا زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، فرأوا حسنة، وهذا خطر كبير.

يقول الحق سبحانه:

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلَّ مِنْ يَشَاءٍ وَيَهْدَى مِنْ يَشَاءٍ
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

يعني ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ﴾ من الشيطان ﴿سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فخدع بذلك ﴿فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ وأصر عليه.. ماذا تملك له؟

هذا أضله الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: الكل بمشيئة الله. لذلك ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ ولا تأسف على كفرهم. حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وفي هذا وعيد لهم بالعقاب. ويعود السياق في الآيات الكريمة مرة أخرى إلى قضية البعث، التي حذر من نسيانها وعدم الاستعداد لها في قوله السابق:

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].
وذلك ليدلل بألوان من قدرته عز وجل على هذه القضية، وهي قضية البعث، فيقول الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾

أي: كما أننا بقدرتنا نرسل ﴿الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا﴾ محملاً بالمطر ﴿فُسْقَنَتْهُ﴾ بقدرتنا، وأنزلناه ماءً ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بلا ماء ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بهذا الماء ﴿الْأَرْضَ﴾ حيث أنبتت بعد موتها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نحن قادرون على الإعادة و ﴿النُّشُورُ﴾ وبعث العباد للحساب والجزاء. يا أيها الناس آمنوا بالله، ولا تغتروا بمتاع الدنيا، ولا بالشيطان، حتى وإن أردتم العزة فاعلموا أن:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ﴾ (١٠)
نعم، من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا، فليلزم طاعة الله تعالى؛ لينال ما يريد ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: العزة الكاملة، والسعادة الشاملة.

وليتنبه إلى أن ما يُطلب به العزة ليس متاع الدنيا، ولا غرور الشيطان، بل الإيمان، والعمل الصالح، حيث إنه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ﴿عَمُومًا﴾ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ﴿اللَّهُ إِلَيْهِ، ويتقبله من صاحبه﴾ ﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ويسلكون الطرق البعيدة عن مرضاة الله؛ طلبًا لهذه العزة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿و﴾ فوق ذلك ﴿مَكْرٌ أُولَئِكَ﴾ أي: وحيلهم لنوال هذه العزة ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ يفسد، ولا يوصل إلى عزة، ولا إلى غيرها.

ثم عاد إلى الاستدلال بآثار القدرة على وحدانية الله تعالى، وإمكانية البعث، إذ يقول عز من قائل:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١١﴾

نعم، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ كله: ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل هين.

وبعث الخلق أيضًا بعد موتهم لحسابهم أمر يسير فآمنوا بالله، ووجوده، وآمنوا بالبعث واستعدوا له إن كنتم عقلاء...!!
ومن آثار قدرته الدالة على وحدانيته أنه:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٍ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى آفَافَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِنَبْتَعُ مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾

يعني: لا يستوي الماء العذب والماء المالح، ومع ذلك فإنه ﴿مَنْ كُلٍ﴾ منهما:

أولاً: ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك. وهذه آية من آيات الله.

ثانياً: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ، وخلافه هذه آية من آيات الله.

ثالثًا: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿فِيهِ﴾ أي: في كل منهما ﴿مَوَاحِرَ﴾

تجرى في الماء ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ دون أن تسقط في الماء.

وهذه آية من آيات الله.

﴿و﴾ كان كل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله؛ بإيمانكم به، واتباع رسله،

والاستعداد ليوم لقائه.

ومن آثار قدرته كذلك الدالة على وحدانيته أنه:

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

كُلٌّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿يُولِجُ﴾ يدخل ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بقدرته.. وهذه آية.

﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بقدرته.. وهذه آية.

﴿و﴾ كذلك ﴿سَخَّرَ﴾ لصالح الإنسان ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ﴾ منهما

﴿يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ محدد، وهو يوم القيامة.. وهذه آية.

الذي صنع هذه الآيات كلها: إله قادر.

﴿ذَلِكُمُ﴾ هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ كله، وله الأمر كله سبحانه

وتعالى ﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من آلهة أخرى، فإنهم

﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ شيئًا؛ لا من السموات ولا من الأرض، ولا مما بينهما، ولو كان شيئًا

﴿مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ وهو القشرة الرقيقة الملتفة على النواة، وإذا كانوا لا يملكون فهم لا

يتصرفون، ولا يستطيعون شيئًا، فكيف إذا تعبدونهم..؟

جربوا ونادوهم، واطلبوا منهم شيئًا!! إنكم:

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

أي: هم لا يسمعون شيئًا، ولا يعقلون شيئًا إنهم أصنام.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أَبَدًا.

﴿وَلَوْ﴾ افترضنا أنهم سمعوا ما فهموا، وما ﴿أَسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ بشيء مما تطلبون.

﴿و﴾ أكثر من هذا: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لو نطقوا ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ لهم.

نحن نعلمكم بذلك الآن، وننبؤكم به؛ لتؤمنوا ولتستعدوا للقاء الله عز وجل.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ بالأمر كله، وهو الله تعالى.

لَمَّا طالت دعوة النبي ﷺ للكفار أن يؤمنوا، وألحَّ عليهم في ذلك، وبالغوا في إصرارهم على الكفر، وتمادوا في عنادهم قالوا ما يفعل محمد ذلك؛ إلا لأن ربه يحتاج إلى عبادتنا، لذلك رد الله عليهم فهمهم الخاطيء، وقولهم الفاحش هذا، بقوله عز وجل:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ المحتاجون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ في كل شيء.

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وحده ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المنفرد بالغننى عن كل شيء، وهو ﴿الْحَمِيدُ﴾ في جميع ما يفعله، ويقول، ويقدره، ويشعره.

وهو عز وجل له المشيئة الكاملة المطلقة ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلكم أيها الناس إلى العدم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقدرة فعله، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ الإفناء للخلق، والإنشاء لغيرهم ﴿عَلَى﴾ قدرة الله ومشيئته ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، أو عسير..

وبما أن الله غير فقير إلى عبادتكم، فتفكروا واعلموا أنه لن يحمل أحد عنكم وزركم، وغنوبة عصيانكم.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

نعم، الله عز وجل عادل، حيث ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة ﴿وِزْرٌ﴾ ذنب نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ إذ كل نفس بما كسبت رهينة.

﴿و﴾ كذلك ﴿إِنْ تَدْعُ﴾ وتطلب نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأوزار، نفساً أخرى ﴿إِلَى﴾ أن تحمل عنها ﴿جَمِلِهَا﴾ لا تستجيب لها، ويظل وزرها كما هو ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ حتى ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ كالأب أو الأخ، أو الولد، أو الأم، أو البنت، أو غير ذلك، وما دام الأمر كذلك فدعهم لا يتعظون، وعليك بمن هم أهل للموعظة، فأنذرهم..

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ﴾ أصلحوا باطنهم وصاروا ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ وأصلحوا ظاهرهم بالعبادة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوا الصلاة على الوجه الأكمل.

واعلم أنه كما أن الوزر على صاحبه، فالحسنة لصاحبها.

﴿وَمَن تَزَكَّى﴾ بفعل الطاعات، وترك المعاصي: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ حيث إن ثواب صلاحه وطهارته يعود إليه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ الذي يلقي فيه كل إنسان جزاء ما قدم.

وبعد أن اتضح من يستفيد بإنذار الرسول ومن لا يستفيد، تأتي بعض المقارنات بينهما؛ عسى أن يفيق المعاندون، يقول الله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَلَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

أي: لا تستوي هذه الأضداد مع بعضها البعض، وكذلك لا يستوي الكافر مع المؤمن أبداً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ﴾ الحق ويهدي إليه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، ولم يرد أن يسمع هؤلاء سمع هداية، فهم كالموتى في القبور.
﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ فلا تبتئس من أجلهم، ولا تحزن لعدم استجابتهم؛ فليس عليك هداهم.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)

نعم، ما ﴿أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لهم، عليك البلاغ فقط، وعلى الله الهداية، ومنه الإضلال.
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ وهو دلائل الهداية ﴿بَشِيرًا﴾ بمن آمن ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن كفر وعاند.

﴿و﴾ لست وحدك فما ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ قبلك ﴿إِلَّا خَلَا﴾ سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ لهم.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ في هذا الحق، ويعاندوا دعوتك، فلست أيضًا وحدك.
﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم؛ حيث ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ هؤلاء ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ وهو التوراة والإنجيل، فكفروا دون علة تمنعهم من الإيمان، أو حجة يتمسكون بها.
ولهذا، ﴿أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هؤلاء بعقابي لهم، ونكالي بهم، ﴿ف﴾ تأمل ﴿كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: نكيري بهم وعقابي لهم!! لذلك فاصبر على تكذيب قومك، فإن عذابي ينتظرهم.

هذا، وبعد أن لفت الله النظر إلى ما يؤدي إلى الخشية منه سبحانه، من خلال ما فعل بالمكذبين، يلفت النظر - كذلك - إلى مظاهر قدرته في هذا الكون، ليؤدي ذلك إلى الخشية منه سبحانه، من خلال التعريف بعظمته، فيقول جل جلاله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۚ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ ۚ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝﴾

يعني ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم أيها المخاطب ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته فعل هذه الأشياء، التي يدلك عليها لتؤمن به، وهي:
 أولاً: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَاءً﴾ وذلك بقدرته تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وأنواعها، وطعومها.
 ثانياً: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: طرق، وشرائح
 ﴿بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ كذلك ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ أي: ذات ألوان قاتمة سوداء.
 ثالثاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ﴾ وأحجامه، وأشكاله.

كل ذلك: دلائل على قدرة الله وعظمته، وكل ذلك داع إلى حسن عبادة الله، وخشيته.
 ولا يدرك ذلك إلا العلماء، حقاً ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ﴾ حق الخشية ﴿مِنَ عِبَادِهِ﴾ كلهم ﴿الْعُلَمَاءُ﴾ الذين يدركون ذلك، ويعرفون عظمة الله تعالى.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ يعاقب العصاة والمعاندين ﴿غَفُورٌ﴾ للطائعين، المصدقين، الخاشعين.

ولمّا بين ربنا عز وجل: العلماء بالله، وخشيتهم له ذكر العالمين بكتاب الله، العاملين به، فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۚ ﴿٢٨﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝﴾

يلاحظ ابتداءً أن قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ﴾ [فاطر: ٢٨] إشارة إلى عمل القلب.
 وأن قوله: ﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى عمل اللسان.
 وأن قوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى عمل الجوارح.
 ومن امتلك هذه الثلاثة: فقد سلك الطريق الحق لخشية الله، وتعظيمه.
 ومعنى الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ وهو القرآن، ويدومون على ذلك
 ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وحافظوا عليها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وفي كل حال.
 وهم بذلك ﴿يَرْجُونَ جِزَاءً لَّنْ تَبُورَ﴾ لن تهلك، وتضيع، ويضيع نفعها.
 هؤلاء: ﴿لِيُوفِيَهُمُ﴾ الله ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم.
 ﴿و﴾ كذلك ﴿يَزِيدُهُمْ﴾ فوق أجورهم، ثواباً ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ لا يخطر لهم
 على بال، حقاً ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعتهم.
 ولما بين ربنا وحدانيته سبحانه، ودلل عليها بالدلائل العديدة من الأنفس والآفاق.
 ذكر رسالة محمد ﷺ، فقال عز وجل:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
 بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١)
 ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾
 من ربك ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما سبقه من الكتب: يشهد لها أنها من عند
 الله، وذلك بالطبع قبل تحريفها، كما تشهد هي له، بالتنويه عليه، وأنه منزل من رب
 العالمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم بالبواطن والظواهر.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى عن القرآن الكريم:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ
 مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢)

المعنى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ هذا ﴿الْكِتَابَ﴾ الذي أوحيناه إليك، وهو القرآن، لهؤلاء ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا﴾ واخترناهم ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ في هذه الأمة، وقد صنف هؤلاء الذين أورثهم كتابه على النحو التالي:

الصنف الأول: الظالم لنفسه ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

الصنف الثاني: المقتصد ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو: الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

الصنف الثالث: السابق بالخيرات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات، وبعض المباحات، الذي يضم إلى العمل، التعليم والإرشاد إلى العمل.

﴿ذَلِكَ﴾ التورث للكتاب: ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ من الله تعالى.
هؤلاء الأصناف الثلاثة، لهم:

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾
﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾
﴿أَلْحَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾
المعنى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: المؤمنون بأصنافهم كلها.

فالظالمون لأنفسهم: يمحسون، ثم يدخلون.

والمقتصدون: يحاسبون حساباً يسيراً، ثم يدخلون.

والسابقون بالخيرات: يدخلون بغير حساب.

ثم ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ هذا حللهم وزينتهم...!!
﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ينعمون به في الجنة، بعد أن امتنعوا عنه طاعة لربهم في الدنيا.

﴿وَقَالُوا﴾ بعد دخولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ رب العالمين.
 ﴿الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ من هموم الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ عز وجل
 ﴿لَغَفُورٌ﴾ للسيئات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات وإن قلت.
 ﴿الَّذِي أَحْلَنَّا﴾ كذلك ﴿دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لا من أعمالنا ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾
 فيها نصبٌ ﴿تعب﴾ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من كثرة التعب.
 هذا حال السعداء، وأما الأشقياء، فيقول عنهم ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ﴾ ﴿٣٧﴾
 أي: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يدخلونها.

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فيها بموت ثان ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحون.
 ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ وهم فيها ﴿مِنْ عَذَابِهَا﴾ فينالهم بعض الراحة.
 ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ بهذا الجزاء: ﴿كُلَّ كَافِرٍ﴾ كذب بالحق.
 ﴿وَهُمْ﴾ في وضعهم هذا: ﴿يَصْطَرِّخُونَ﴾ يصرخون بشدة ﴿فِيهَا﴾...!!
 يقولون: ﴿رَبِّنَا أَخْرِجْنَا﴾ من النار، وأعدنا إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ فيها عملاً
 ﴿صَالِحًا﴾ يرضيك عنا ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.
 فيكون الجواب عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ عمراً، بمقدار ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ﴾
 أحب أن يتذكر ويتعظ...!!

﴿و﴾ بالفعل ﴿جَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يذكر ويعظكم، فلم تقبلوا تذكيره، ولم تعملوا
 بنصحه ووعظه...!!

﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب...!!
 ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ﴾ يعينهم ويبعد عنهم العذاب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨)
 هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ
 كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٩)

يعني ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما، وما بينهما.
 حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وما تكنه وتنطوي عليه، وسوف
 يجازي أصحابها بما يستحقون.

نعم، ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي جَعَلَكُمْ﴾ يا مَنْ تقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحًا
 غير الذي كنا نعمل ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ومكنكم فيها قبل ذلك، فكفرتم.
 ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ﴾ بالطبع وبإل كُفْرِهِ.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾.
 ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ عند ربهم ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾.

ثم يقرر الله التوحيد، ويبطل الشرك بقوله عز وجل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ
 لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ
 بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (٤٠)

يعني ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني عن أحوال شركائكم وآلهتكم
 ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ثم ﴿أَرُونِي﴾ مظاهر قدرتهم..

أولاً: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾؟ فيستحقون العبادة، فتعبدونهم..!!
 ثانياً: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ مع الله ﴿فِي﴾ خلق ﴿السَّمَوَاتِ﴾؟ فيستحقون العبادة،
 فتعبدونهم..!!

ثالثاً: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ من عند الله يثبت شركتهم لله ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ
 مِّنْهُ﴾ وبرهان يشهد لهم بذلك؟ فيستحقون العبادة، فتعبدونهم..!!

لا هذا، ولا ذاك، ولا ذاك.

﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ بأهوائهم وآرائهم ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وباطلاً؛ فهم بذلك في ضلال حينما يعبدونهم...!!

ولمَّا بَيَّنَّ المولى القدير أنه لا خلق للأصنام، ولا قدرة لها على ذلك، بدليل أن الله عز وجل هو القدير وحده، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١)

يعني: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بقدرة، ويمنعهما ﴿أَنْ تَزُولَا﴾ وتتحركا من مكانهما.

﴿وَلَئِنْ﴾ افترضنا أنهما ﴿زَالَتَا﴾ من مكانهما هذا، ما ﴿أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ غيره.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ يكفر عباده ويعصونه، وهو يحلم بهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة، أو إسقاط السماء عليهم، و ينتظر توبتهم؛ ليغفر لهم.

وبهذا: بين الله إنكارهم لوحداية الله عز وجل وقدرته، كما كذبوا الرسول ﷺ وأنكروا رسالته، وبالغوا في هذا الإنكار، يقول عز من قائل:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢)

يعني: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ مؤكدين أيمانهم هذه قائلين: ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من الله ليؤمنن به، ويتبعونه، و ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ المستقيمة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمداً ﷺ، وهو ﴿نَذِيرٌ﴾ لهم ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ وتباعداً عن الحق، وعناداً له.

وما كان هذا الموقف منهم إلا:

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٤٣)

أي: عاندوا محمدًا، وكذبوا رسالته، ونفروا منه، وابتعدوا عنه.

﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾ منهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ عن اتباع آيات الله.

﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ كذلك، أي: رغبة المكر السيئ بالناس في منعهم وصددهم عن

هذه الدعوة، واتباع صاحبها، فهل يظنون أنهم ناجون من أخطار ما يفعلون..؟

كلا ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ وينزل ضرر ﴿الْمَكْرِ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وأصحابه، وسينزل

بهم لا محالة..!!

ألا يؤمنون، ويكفون عن مكرهم هذا، فهو أفضل لهم؟ ماذا ينتظرون؟ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ

إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين كان يأتيهم الرسول، فيكذبونه، فيهلكهم الله؟ على أية حال:

ستتنا لا تتغير ولا تبدل، وسنهلكهم.

﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بغيرها..!!

﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ عنهم، دون أن تهلكهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ

مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ

كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى

ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبَتْ

اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

يعني ﴿أ﴾ قعدوا ﴿وَلَمْ يَسِيرُوا﴾ خلال سفرياتهم وتحركاتهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾

لمصالحهم ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ إلى آثار السابقين، فيعرفوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ﴾ لما كذبوا؟ خاصة: ﴿و﴾ أنهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأطول أعمارًا،

وأكثر أموالًا، ومع ذلك أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ ويمنعه عن عقابهم، وإهلاكهم ﴿مِنْ شَيْءٍ فِي

السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لذلك هو سبحانه يمهلهم ولا يهلكهم.

﴿إِنَّهُ﴾ عز وجل ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بهم وبغيرهم ﴿قَدِيرًا﴾ عليهم وعلى غيرهم.

ومع ذلك لا يعاجل بالعقوبة.

حقًا، يعني ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ ويعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي والذنوب، لأهلكهم جميعًا و ﴿مَا تَرَكَ﴾ بذلك ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾ أي: الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: أحدًا يدب عليها من إنسان أو حيوان.

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ سبحانه، ويمهلهم؛ عسى أن يتوبوا ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم موتهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ وماتوا، جعل القبر روضة من رياض الجنة للمؤمن، وحفرة من حفر النار للكافر ثم بعثهم، ونعم الصالحين، وعذب الفاسدين، وليس ذلك على الله بعزيز!!

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ لا تخفى عليه أحوالهم ولا أمورهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

هذه السورة مكية، وتبدأ بقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾

﴿يَس ١﴾ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ أي: المحكم، ذو الحكمة؛ لأنه من الله الحكيم سبحانه وتعالى.

هذا قسم من الله عز وجل: يؤكد به للمكذبين رسالة محمد ﷺ. وجوابه: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ من الله تعالى، إلى الدنيا كلها. وأنت ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، الذي هو المنهج القويم، والشرع المستقيم.

وهذا الصراط المستقيم الذي جئت به، والذي أنت عليه: ﴿تَنْزِيلَ﴾ أي: منزل عليك من ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ بعباده المؤمنين. وقد نزل عليك:

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٦﴾ أي: ﴿لِنُنْذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ أي: كل قوم، في كل عصر، وبالذات: العرب، الذين ﴿مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ من قبل، ولذلك: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن آيات الله، بعيدون عن هديهِ.

ذات يوم حلف أبو جهل ليضربنَّ رأس محمد بالحجر ؛ فلما رآه، رفع يده بالحجر ليضربه، وهنا: غُلَّت يداه إلى عنقه، والتصق الحجر بيده، ونزل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، وهو:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

نعم، حَقَّ ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث علم الله تعالى أزلاً، أنهم يُصرون على الكفر حتى مماتهم، ولذلك: وجب عليهم العذاب، ومن هذا يفهم: أن المؤمنين، هم الأقلية، وأما هذه الأثرية التي اختارت الكفر، ورضيته، وأصرَّت عليه: فيقول عنها رب العزة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ رُبِطَتْ فيها أيديهم ﴿فَهِيَ﴾ أي: الأيدي ﴿إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ مرفوعة، مشلولة الحركة، وبذلك: ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ عاجزون عن أي: تصرف، هذا من جهة.

﴿و﴾ من جهة أخرى: ﴿جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم ﴿سَدًّا﴾ يمنعهم من الحق ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وبذلك: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أعميناهم عن الحق ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿و﴾ على هذا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾: لا ينفعهم الإنذار، و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث أضلهم الله عن الهدى، وقيدهم، وأعماهم عنه.

ولكن هناك فريق آخر: ينفع الإنذار معه يقول عنه المولى الكريم:

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ﴾ الإنذار النافع ﴿مَنِ﴾ اجتمع له أمران:

الأول: ﴿اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن، حيث خضع له، وعمل به.
الثاني: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ أي: أطاع الله في جميع أموره، وخاف معصيته في خلوته.

من اجتمع له هذين الوصفين: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ من ربه ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لطاعاته.

ثم يذكر ربنا عز وجل: بعض ما يثير الخشية منه، ويبعث عليها، فيقول عز وجل:
 ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١٢)

يعني: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ بقدرتنا ﴿الْمَوْتَىٰ﴾ يوم القيامة ﴿وَنَكْتُبُ﴾ وقد كتبنا ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ من أعمال حسنة، أو سيئة ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ كذلك التي تركوها من خلفهم سواء أكانت حسنة: مثل علم علموه، أو صدقة جارية، أو مسجد بنوه، أو عمل صالح أتقنوه، أو كانت سيئة: مثل فاحشة أشاعوها، أو بدعة نشروها، أو ظلم اقترفوه، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ وجمعناه، وسجلناه ﴿فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وبهذا: لا يغيب عنا ما عملوه، ولا يصعب عقابهم علينا.

ولأن الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون: غير معروفين إلا الله سبحانه وتعالى..!!

فإن الأمل في إيمان الباقيين: باق لم يغلق بابه.

ولذلك: يقول ربنا لمحمد ﷺ:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (١٤)

يعني: ﴿وَأَضْرِبْ﴾ يا محمد لقومك ﴿مَّثَلًا﴾ أي: قصة ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾، وذلك: ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لدعوة أهلها للإيمان.

واذكر لهم: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ﴾ من أهل القرية، هؤلاء المرسلين ﴿اثْنَيْنِ﴾، فلم يُستجب لدعوتهم، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ وقوينا هذين الاثنين ﴿بِثَالِثٍ﴾ أرسلناه معهما إلى أهل هذه القرية.

﴿فَقَالُوا﴾ جميعاً، أي: الثلاثة لأهل القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ من ربكم الذي خلقكم: ندعوكم إلى طاعته، والإيمان به.

ماذا فعل أهل هذه القرية، بعد زيادة هذا الثالث؟

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (١٥) أي: ﴿قَالُوا﴾ لهم:

أولاً: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ولا ميزة لكم علينا، حتى تكونوا رسلاً إلينا.
ثانياً: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما تقولونه، من توحيده، وطاعته، وعبادته.
ثالثاً: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ علينا.
وأجابهم الرسل:

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١٦) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (١٧) يعني ﴿قَالُوا﴾ لهم نعم: نحن بشر، و ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ منه، وإنا لا نكذب عليكم.

﴿وَلَذَلِكَ﴾ لذلك ﴿مَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ الواضح لهذه الدعوة ومبادئها، وعلى الله الهداية.

وبهذا انتهت حجة المكذبين، وكان عليهم أن يسكتوا، بل أن يؤمنوا، ولكنهم غرّتهم قوتهم، وبهرهم سلطانهم، حيث:

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) أي: ﴿قَالُوا﴾ للمرسلين:

أولاً: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاء منا بكم، وبوجودكم بيننا، وبدعوتكم لنا، فاسكتوا، وابتعدوا عنا.

ثانياً: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن دعوتكم إلينا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة حتى الموت، كراهة لكم، ورفضاً لدعوتكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ولم تخف الرسل من تهديدهم!! ولم يسكتوا عن دعوتهم!! حيث:

﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩)

يعني ﴿قَالُوا﴾ لهم:

أولاً: ﴿طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: سبب شؤمكم معكم، وهو كفركم.

ثانياً: ﴿أَيْنَ دُكِّرْتُمْ﴾ بالهدى، ودعيتم للإسلام تشائمتم؟

ثالثاً: لا تشاؤم منا، ولا قبول منكم للدعوة ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ في ضلالكم.

في هذه الأثناء، وخلال احتدام النقاش بين المكذبين والرسول: حدث أمر طيب عجيب يحكيه ربنا بقوله سبحانه:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) ﴿أَتَبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢١)

يعني ﴿وَجَاءَ﴾ إليهم ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ يسير بجدة وسرعة، ووصل إليهم، وعرف ما دار بينهم، وتوجه إلى قومه ﴿قَالَ يَنْقُورِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين جاؤكم بالهدى.

يا قوم ﴿أَتَبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على هذه الدعوة، وإبلاغ هذه الرسالة ﴿وَهُمْ﴾ في ذاتهم، وفي دعوتهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ صالحون، صادقون، لا يكذبون.

وكان أصحاب القرية استغربوا موقفه، واستنكروا كلامه، وسألوه: هل آمنت معهم؟ فقال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٢)

أي: رد عليهم قائلاً لهم: ﴿وَمَا لِي لَا﴾ أومن و ﴿أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني خلقتني..؟ ﴿و﴾ في الوقت ذاته: أنتم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على موقفكم هذا.

ولمّا وجدوا اقتناعه بما جاء به المرسلون!! كأنهم حاولوا إعادته إلى الكفر معهم، فقال لهم:

﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَهَةً ۚ إِنَّ يُرَدِّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ (٢٣) ﴿إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٤) ﴿إِنِّي ۖ ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٥)

يعني: ﴿إِنِّي﴾ أعود إلى الكفر بعد أن هداني ربي وآمنت، و ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غير ربي ﴿إِلَهَةً﴾ لا تملك شيئاً؟

بحيث: ﴿إِن يُرَدِّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ أي: بمكره؛ لأنه النافع الضار، ﴿لَا تُغْنِي عَنْهُمْ﴾ وتبعد ﴿شَفَعَتُهُمْ﴾ لي، لو كان من هذا الضر ﴿شَيْئًا﴾ ولو يسيراً، كما أنهم ﴿وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ مما يحدث لي من مكروه.

﴿إِنِّي﴾ لو فعلت ما تريدون ﴿إِذَا﴾ أكون مثلكم في ﴿ضَلَالٍ﴾ عن الهدى ﴿مُبِينٍ﴾ واضح.

وهنا: بدأ القوم يضربونه ضرباً يريدون به قتله، فما تخاذل، وما تراجع بل قالها مدوية في وجوههم، دامغة لظلمهم: ﴿إِنِّي ۖ ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وربّي، ولن يفتني عنه عذابكم ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ إن كنتم تعقلون، وآمنوا بما آمنت به، وهو ما يدعوكم إليه المرسلون. ثم قتلوه!! فكافأه الله عز وجل بالجنة!!

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۚ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

فدخلها، فهو يرزق فيها، وأذهب الله عنه هموم الدنيا، وغمومها، وقلقها، وتعبها. فلما رأى هذا الثواب، ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾:

﴿يَمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٧)

وهذا هو حرص الدعاة على هداية الناس ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦] يعلمون الحق، ويؤمنون به، حتى يغفر الله لهم ذنوبهم، ويكرمهم برضوانه، ودخول جنته. وهكذا، انتهت قصة أصحاب هذه القرية.

يقول تعالى تعقيباً على هذه القصة:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾

يعني: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ المكذبين ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من بعد قتلهم له ﴿مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ لإهلاكهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ هؤلاء الجند. فأمّر إهلاكهم كان أيسر من ذلك ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ هلكتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ من جبريل عليهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ ميتون جميعاً في لحظة واحدة، وهكذا: هلكوا!! ﴿يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ هؤلاء وأمثالهم الذين ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ﴾ يدعوهم إلى الخير، ويدلهم عليه ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ له يكذبون، و ﴿بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. وهذا التحسر: فيه تعريض بكفر المكذبين بمحمد ﷺ، وهم الذين ضرب لهم مثل أصحاب القرية هؤلاء، ثم يعود الخطاب المباشر لهم في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

أي: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ويعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ كثيراً ﴿قَبْلَهُمْ﴾ من أهل ﴿الْقُرُونِ﴾ السابقة، ويتعظوا بهم، وبما حدث لهم؟! خاصة: و ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. أيضاً: ﴿وَإِنْ كُلُّ﴾ منهم ﴿لَمَّا جَمِيعٌ﴾ لا استثناء لأحد ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب يوم القيامة، والجزاء على أعمالهم!!

نعم، نهلكهم بقدرتنا، ونبعثهم للحساب بقدرتنا، وهذا دليل لهم على ذلك:

﴿وَأَيُّهُ لَمَّا الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْتُهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

يعني ﴿وَأَيَّةٌ﴾ ودليل ﴿لَهُمْ﴾ على وحدانية الله، وقدرته، وإرساله الرسل إليهم وهي ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ اليابسة وذلك من عدة وجوه:

الأول: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ من هذا الموت، بالماء ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

الثاني: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ بعد نزول الماء عليها ﴿حَبًّا﴾ كالقمح وغيره ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: ليتغذوا به ويعيشوا.

الثالث: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

الرابع: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ الماء، الذي يسقي الزرع ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾، كل هذا من فضل الله، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ولا صنعتهم عقولهم، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ فيؤمنون بالله، ويوحّدونه، ويتبعون رسوله؟

سبحان الله !! نعم:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦)

يعني ﴿سُبْحَانَ﴾ الله، وتنزه عما يقولون في حقه، ويشركون معه غيره؛ إذ هو ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا﴾ سواء كانت ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الزرع والثمار، أو ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: الذكور والإناث أيضا ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مما لم يطلعهم الله عليها، ولم يتوصلوا إليها.

وهذا دليل آخر على: وحدانية الله، وإرساله الرسل، وقدرته على بعثهم للحساب:

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلِيلٌ نَّسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠)

﴿و﴾ هذه ﴿ءَايَةٌ﴾ لهم، كذلك!! وهي آية مكوّنة من آيات على الوجه التالي:

أولاً: ﴿الَّيْلُ﴾ حيث ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ وننزعه عنه؛ فيذهب ضوؤه ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي: داخلون في الظلام.

ثانياً: ﴿وَالشَّمْسُ﴾ حيث ﴿تَجْرِي﴾ بقدرة الله وإرادته ﴿لِئَسْتَقَرَّ لَهَا﴾ تستقر فيه عند انتهاء أمر الدنيا، ويلاحظ: أن ﴿ذَلِكَ﴾ الجري لها، هو ﴿تَقْدِيرٌ﴾ أمر دقيق من ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ لا من أحد سواه، ولا يدعي ذلك أحد سواه.

ثالثاً: ﴿الْقَمَرُ﴾ حيث ﴿قَدَرْنَاهُ﴾ أي: قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ يسير فيها ﴿حَتَّى﴾ إذا كان آخرها ﴿عَادَ﴾ مظلماً ﴿كَالْعُرْجُونِ﴾ وهو جريد النخل ﴿الْفَكِيدِ﴾ إذا قدم واصفر وتقوس.

رابعاً: وذا من بدائع قدرة الله وصنعه؛ حيث إنه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ وهذا من تدبير الله ﴿وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَدُورُ فِي فَلَكٍ﴾ خاص به، وكلهم في فلك السماء يدورون، و ﴿يَسْبَحُونَ﴾ في هذا الفراغ الواسع الكبير، دون توقف، أو كلل، أو ملل.

أفلا يفهمون هذه الآيات فيؤمنون بالله، ويوحّدونه، ويتبعون رسوله؟ وهذا دليل ثالث:

﴿وَأَيُّهُمُ أَتَى حَمَلَنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَلِنْ نُنْفِخَهُمْ فَلَا صَرْيَخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقْدُونَ﴾ (٤٣) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٤٤)

﴿وَأَيُّهُمُ أَتَى﴾ تدل على: وحدانية الله، وإرساله محمداً ﷺ، وتدلل على قدرته سبحانه، وهذه الآية مكوّنة مما يلي:

أولاً: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذرية آدم ﴿فِي الْفُلِّ﴾ وهي: سفينة نوح ﷺ ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

ثانياً: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي: مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من السفن، والإبل، والدواب، وجميع وسائل المواصلات.

ثالثًا: ونجيناهم من الغرق، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر ﴿فَلَا صَرِيحَ﴾ مغيث ﴿لَهُمْ﴾ ينتشلهم منه ﴿وَلَا هُمْ يُقْدُونَ﴾ وينجون من هذا الغرق ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ لهم ﴿وَمَتَاعًا﴾ بالحياة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى حين انقضاء آجالهم وموتهم.

وعلى الرغم من وضوح هذه الأدلة، فهم يعاندون!!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا﴾ غضب ربكم وعذابه في الدنيا والآخرة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وتنجون من هذا العذاب: رفضوا، وعاندوا.

كذلك: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤٦)

حتى هذه الآيات الدالة على: وحدانية الله، وصدق الرسول، وقدرة المولى، حينما تعرض عليهم: ﴿كَانُوا عَنْهَا﴾ وعن الإفادة منها، والإيمان بسببها ﴿مُعْرِضِينَ﴾ رافضين، معاندين .

أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٧)

يعني: إذا طُلب منهم الإنفاق في وجوه الخير ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، قال هؤلاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مستهزئين رافضين:

﴿أَنْطَعِمُ مَنْ﴾ أفقره الله، ولو ﴿يَشَاءُ اللَّهُ﴾ إطعامه ﴿أَطْعَمَهُ﴾ هو، دون حاجة إلينا، ثم يقولون: ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ بهذه الدعوة لنا للإنفاق ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

يعني: يقولون: متى هذا الوعد بالعذاب الذي تعدوننا به؟ فاتونا بهذا العذاب إن كنتم صادقين، أي: إن كان دينكم هذا صحيح!!

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩)

أي: ما ينتظرون إلا الصيحة الأولى، أي: النفخة الأولى، تأخذهم وبعضهم يخاصم بعضاً في معاملاتهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٠)

يعني: لا يستطيعون أن يوصوا بشيء من أمورهم، ولا يقدرّون على الرجوع إلى منازلهم. ويرى ابن كثير رحمته الله: أن هذه هي نفخة الفرع، ثم تكون نفخة الصعق، ثم تكون نفخة البعث، والأرجح: أنها نفخة الفرع، وهي النفخة الأولى.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١)

ثم بين سبحانه وتعالى ما بعد النفخة الأولى: أي: نفخ فيه مرة أخرى، وهي النفخة الثانية. والأجداث: هي القبور.

ولكن كيف صارت النفختان مؤثرتين في أمرين متضادين، هما الإحياء والإماتة؟ نقول لا مؤثر غير الله، والنفخة مجرد علامة، ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام. والنسلان: هو الشيء السريع.

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢)

قال الكفار لما بعثوا، لأن قوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [يس: ٥١] يدل على أنهم بعثوا، والمرقد: هو المضجع.

قال ابن كثير رحمته الله: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم.

فإذا قالوا: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾؟ أجاب المسلمون قائلين: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣)

نعم، ما هي إلا صبيحة واحدة: فإذا الجميع بين أيدينا خاضع خاشع، أحضِر إجباريًا، وصار واقفًا ينتظر الحساب.

ثم يكون في هذا اليوم ما يكون، مما تنخلع له القلوب، وتشيب منه الولدان، لكن على قاعدة واضحة، في هذا الحساب يسجلها العادل سبحانه في قوله:

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

لا ظلم في هذا اليوم، لا تهمة لبريء، ولا عقاب بغير ذنب، ولا تهاؤن مع مسيء، حيث يجازى الكل بما عمل إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

نسأل الله السلامة والعافية.

ثم يخبر ربنا عن أهل الجنة، جعلنا الله وإياكم منها!! فقال:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

يخبر الكريم عن أهل الجنة، ونعيمهم في آيات يُتعبد بها، وتلى إلى يوم القيامة!!؟

إنه غاية التشويق، والتحبيب فيما يوصل إلى ذلك، ألا وهو طاعة الله تعالى!!

نعم، يكون أصحاب الجنة، وهم عباد الله المؤمنون الصالحون، يوم القيامة: في نعيم يشغلهم عن غيرهم؛ حيث يكونون هم وزوجاتهم الصالحات في ظلال أشجار الجنة، يسعدون بما يكون لهم فيها، فكل ما يشتهونه ينالونه، ويحصلون عليه دون مجهود أو معاناة، ثم يكون لهم أكمل الأشياء وأتمها وأعظمها: حيث يتجلى لهم ربهم عز وجل، ويُنعم عليهم بالسلام، الذي هو غاية المنى.

يقال لهم: سلام من رب رحيم.

وأما الآخرون: أعاذنا الله منهم، ومن شرهم، وضررهم وصحبته!! وهم الكافرون فيقال لهم:

﴿وَأَمَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾

ابتعدوا أيها المجرمون عن المؤمنين، فليستم منهم، ولا هم منكم، ابتعدوا عنهم، فسنديقكم اليوم العذاب الأليم، الذي كنتم به تكذبون.

ويمثل الكافرون!! وينعزلون عن المؤمنين، وهم في حسرة وألم!!

فيقول لهم العزيز الحكيم:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾
﴿٦٠﴾ وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلاَ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

يقول لهم ربنا عز وجل تبكيئا وتقريعا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ وأمركم وأنتم في الدنيا على السنة رسلي، وفي كتبي، بشيئين:

الأول: ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ بطاعته فيما يوسوس لكم ويزينه من المعاصي، وقد حذرتكم منه وقلت لكم: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الثاني: ﴿وَأَن أَعْبُدُونِي﴾ وحدي، وأطيعوني، واتبعوا رسلي، وقلت لكم موجّها ومرغباً في الطاعة: ﴿هَذَا صِرَاطٌ﴾ طريق إلى سعادتكم وفوزكم ونجاتكم في الدنيا والآخرة ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحراف فيه ولا اعوجاج.

ومع هذا العهد، وهذا التبيين، وهذا الترغيب في الطاعة: ﴿أَضَلَّ﴾ الشيطان وأغوى وأفسد ﴿مِنْكُمْ جِلاَ﴾ خلقاً ﴿كثيراً﴾ فعصوني، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ فتميّزون الصواب من الخطأ، والهدى من الضلال؟

على أية حال:

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

عم، يقال لهم: تحسيرا، وتبكيئا، ونكاية لهم!!

﴿هَذِهِ﴾ هي ﴿جَهَنَّمُ الَّتِي﴾ حذرتكم منها الرسل، والتي ﴿كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها: بسبب معاصيكم وكفركم.

الآن ﴿أَصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها، فهي ﴿الْيَوْمَ﴾ سكنكم وإقامتكم، وذلك: جزاء لكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا.

وهنا ينكرون ويقولون: ما كفرنا!! ويحلفون: ما كنا مشركين!!

فيقول رب العزة:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٥﴾

يعني في هذا الموقف ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ التي يجادلون بها، ونفصح أمرهم، ونكشف سترهم، ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ بدل ألسنتهم ﴿وَنَشْهَدُ﴾ عليهم ﴿أَرْجُلُهُمْ﴾ شهادة حق ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من أعمال قبيحة.

فيقول ربنا عز وجل:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٨﴾

يقول ربنا سبحانه وتعالى: نحن قادرون على هؤلاء، وهم يعيشون على إنعامنا عليهم، وإحساننا إليهم، ومع ذلك: يكفرون!!

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا﴾ بقدرتنا ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ فأعميناهم، وسلبنا منهم نعمة البصر، فإذا أرادوا السير كعادتهم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ منهم هذا العمى، ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ حينئذ؟ طبعاً لا يستطيعون!!

﴿و﴾ كذلك ﴿لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ بقدرتنا ﴿عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ﴾ أي: وهم في أماكنهم، وجعلناهم قردة وخنازير، وسلبنا منهم نعمة الخلق الحسن، فإذا أرادوا الذهاب والمجيء ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إذا مسخوا في مكانهم لم يقدرُوا أن يذهبوا، ولا أن يرجعوا.

﴿و﴾ على كل ﴿مَنْ نُّعَمِّرْهُ﴾ ونجعله يعيش زمناً طويلاً ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: نجعله بعد القوة ضعيفاً، وبعد الشباب هرمًا.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ كل هذا، ويتدبرون فيه؛ فيعرفون قدرة الله، فيؤمنون ولا يكفرون؟ لقد بلغهم محمد ﷺ كل هذا، ودعاهم إلى الإيمان، وتلى عليهم القرآن، الذي هو من عندنا، والذي ليس بشعر كما يرددون.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

نعم، القرآن كلام الله تعالى، وهو الحق، وليس بالشعر، ومحمد بلغه، وهو ليس بشاعر ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أصلاً لنتهموه بذلك ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أن يكون شاعراً، وكذلك: ما يصح أن يكون القرآن شعراً!!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ يتلى ويُتَعَبَّدُ بتلاوته، ويبين المنهج السوي والطريق المستقيم، لمن أراد طاعة الله، ونوال رضاه.

وكذلك ﴿لِيُنذِرَ﴾ النبي ﷺ بهذا القرآن، ويخوف ﴿مَنْ كَانَ﴾ قلبه ﴿حَيًّا﴾ يعقل؛ فيستفيد الهداية والفلاح، ﴿و﴾ أيضًا ﴿يَحِقُّ الْقَوْلُ﴾ وتلزم الحجة، ويجب العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المعاندين.

ثم تعود آيات السورة الكريمة للتأكيد والتدليل على وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته فتقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يعني ﴿أ﴾ عمي هؤلاء ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ بعيونهم، ويعلموا بعقولهم ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾ وحدنا ﴿لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ دون شريك أو مساعد ﴿أَنْعَمًا﴾ هي الإبل والبقر والغنم؟!

ويدخل في ذلك: كل ما أنعم الله به على الإنسان إلى يوم القيامة، وقد بين الله سبحانه وجوه الإنعام في هذه الأنعام، فقال:

أولاً: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ حيث إنه لو خلقها سبحانه ولم يملكها الإنسان: ما

كان ينتفع بها أحد!!

ثانياً: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: سخرناها وطوعناها لهم، حيث إنها لو كانت أبيّة

عصية: ما كان ينتفع بها أحد!! ولذلك يقول عز وجل ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

ثالثاً: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ غير ما ذكر ﴿وَمَشَارِبٌ﴾، ثم يقول ربنا تبارك

وتعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ صاحب هذه النعم، بالإيمان بوحدانيته، وقد رتته، ويتبعون رسله..؟ يا سبحانه الله!! إنهم بدل أن يؤمنوا كفروا.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾

إنهم اتخذوا آلهة من دون الله؛ أملاً في نصرها لهم، ومساعدتها إياهم، إذا نزل بهم ضر، أو حدث لهم مكروه، أبداً: هذا لا يكون، ولن يكون، إذ أنّ هذه الآلهة: لا تستطيع، ولا تنفع، ولا تضر.

والعجيب!! أن هؤلاء الكفار: يعطون الولاء الكامل، والجنديّة الحقة لهذه الآلهة العاجزة التي صنعوها لأنفسهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ على أتم استعداد لخدمتها.

مع أن الواجب عليهم: أن يعطوا هذا الولاء، وهذه الجنديّة الكاملة، والطاعة التامة لله رب العالمين، وألا يقولوا على الله: إلا الحق، وألا يقولوا على النبي ﷺ: إلا أنه نبي.

﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦)

فلا يسوءك ويحزنك يا محمد كفرهم بالله، وتكذيبهم لك، وعنادهم معك؛ حيث ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وسنجازيهم بما يستحقون.

ولمّا كان الدليل السابق على وحدانية الله.. من دلائل الآفاق!! ذكر بعده من دلائل الأنفس ما تقدمه هذه الآيات:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

يعني ﴿أ﴾ جهل ﴿وَلَمْ يَرَ﴾ ولم يعلم ﴿الْإِنْسَانُ﴾ الذي ينكر وحدانية الله، وينكر البعث ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ﴾ وحدنا بقدرتنا ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ ضعيفة مهينة ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد هذا الخلق، وهذه الرعاية، وهذا الإنعام ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ في عداوته لربه، بإنكاره وحدانيته، وعدم اتباعه لرسله، وانقياده لشرعه؟.

﴿و﴾ من خصومته، أنه ﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ حيث أتى أحدهم بعظم بال للنبي ﷺ، وفشقه بيده، و ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ﴾ هذه ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ بالية؟ أترأه الله يا محمد؟ ونزلت هذه الآيات، وهي باقية إلى يوم القيامة حجة على كل من يكفر بالله تعالى، وينكر البعث.

ولذلك يقول ربنا للنبي ﷺ، وكل حامل لرايته، ومبلغ لدعوته:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (٨٠) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنكرين ﴿يُحْيِيهَا﴾ الله سبحانه وتعالى، وبعثها يوم القيامة، فهو سبحانه الذي ﴿أَنشَأَهَا﴾ من العدم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ومن قدر على البدء: قدر على الإعادة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ خلقه وأنشأه ﴿عَلِيمٌ﴾ به، وقادر على إعادته. وهذه دلالة على قدرته سبحانه:

أولاً: هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم بِقَدْرَتِهِ﴾ ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ أي: تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر.

ثانياً: هو الذي خلق السموات والأرض باعترافكم ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

هكذا.. ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ ﴿٨٣﴾ أَي: يعيدهم كما بدأهم..؟ ﴿بَلَىٰ﴾ إنه قادر
﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ سبحانه وتعالى.

ثالثًا: هو الذي يقول للشيء كن فيكون فورًا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لأن أمره بين الكاف والنون.

رابعًا: هو الذي بيده ملكوت كل شيء، ولا ملك لغيره ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو صاحب الأمر والنهي، والحوّل والطول، ﴿وَالِيهِ﴾
سوف ﴿تَرْجَعُونَ﴾ أيها المعاندون، مع جميع الخلائق يوم
البعث، وتجاوزون على أعمالكم وعنادكم وكفركم.

فآمنوا إن كنتم تعقلون!!

